الهيئة العامة السورية للكتاب

تحت المطر

تصميم الغلاف

عبد العزيز محمد

الهيئة العامة السورية للكتاب

يونس محمود يونس

تحت المطر

قصص

الهيئة العامة السورية للكتاب

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠٢٣م

-٣-

الآراء والمواقف الواردة في الكتاب هي آراءُ المؤلِّفِ ومواقِفُهُ ولا تعبِّر **(بالضرورةِ)** عن آراء الهيئة العامة السورية للكتاب ومواقفها.

تحت المطر: قصص / يونس محمود يونس.- دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠٢٣م.- ٩٦ص؛ ٢٠سم.

١- ٨١٣,٠١ ي و ن ت ٢- العنوان ٣- يونس

٤- السلسلة

مكتبة الأسد

قصص

« الإهداء »

إلى القراء الكرام

أهدي هذه المجموعة

مع خالص مودتي وتقديري

الهيئة العامة السورية للكتاب

الهيئة العامة
السورية للكتاب

الدعاء

عندما غادر السيّد (ن) السيّارة التي أوصلته إلى السوق. استرعى انتباهه وجود شخص أصغر سنّاً منه... كأنه كان ينتظر وصوله. لأنه ما كاد يراه حتى أخذ هذا الشخص يسير أمامه محافظاً على تلك الخطوات التي تفصله عنه. كلاهما يسيران على الرصيف نفسه. هو يبدو أكثر هدوءاً وسكينة، والآخر يبدو أكثر حيوية ونشاطاً...

بعد مسافة من السير... اتجه نظر السيّد (ن) إلى دكان صديقه محمد... إذ كان ينوي أن يسلّم عليه ويشتري منه بعض الأشياء. لكنه فوجئ بالدكان مغلقاً، وحينذاك تغيّر المشهد الذي كان يملأ ذهنه. الشخص الذي كان يسير أمامه اختفى، ومشهد السوق برمته بدا له مختلفاً. بل إنّ واقعيته الشديدة صدمته بقسوة. ذلك أن الكثير من الدكاكين كانت مغلقة، والسوق يبدو خالياً من المتسوقين... أما السيّارات المتوقفة والعابرة فكانت تشكل نسقين يحملان من صفات البشاعة ما يذكّر المرء بأخطاء الناس التي تتراكم لتصبح في لحظة ما عاراً يهرب الجميع منه... لأنه كما يزعمون... هبط إليهم من السماء، ولم يصنعوه بأنفسهم.

«ما هذا الذي يحدث يا الله».

بهذا القول عبّر السيّد (ن) عن استيائه من المشهد الذي رآه... السيّارات المتوقفة أكثر بكثير من المتسوقين... كيف ذلك؟ وأي سوق هذا الذي

ما عدت أعرفه؟ وأي اقتصاد هذا الذي لا يعرف الرحمة؟ ولماذا دكان محمد مغلقاً؟ ولماذا الكثير من الدكاكين مغلقة أيضاً؟ أهي الحرب؟ أجل إنها هذه الحرب التي انتصر فيها تجار الحرب عوضاً عن أفراد الشعب... أما السوق فكأنه يقول: الشعب مات!!.

عاد السيّد (ن) يبحث مرة أخرى عن ذلك الشخص الذي كان يتقدّمه. فرآه واقفاً ينتظره... بل كان ينظر إليه بإشفاق مع شيء من السخرية... فقال محدثاً نفسه «إنه موجود... بل هو ينتظرني... يا له من شقيّ! والأهمّ... لماذا أراه الآن؟ وكيف لي أن أتعامل مع نظراته الغريبة وذهني معطّل تماماً؟ إني أراه يشفق عليّ وأنا لم أشعر يوماً بمثل بشاعة هذه البلادة التي تجتاحني! هل لأني أبدو أمامه عجوزاً لا أجاريه في قدرته على الصبر والتحمّل؟ أم لأنه يريد أن يذكّرني بما كنت وكان؟.

أياً يكن حالنا نحن الاثنين... فأنا وهو غرباء... الحرب قطعت الحياة بيننا... أنا غادرت عالم الدهشة إلى فضاء الخلود التافه... إذ لا عمل لي فيه سوى اجترار الأشياء التي تلقى أمامي كأني طاحونة لا تعجز عن طحن أي شيء.

بل كأني أصبحت قادراً على طحن هذا العالم الصلب دون أن أبذل أيّ جهد... أما هو فما يزال ينتظر الفرص الصغيرة ليقتات بها... لكن من أين له أن يجد فرصة الآن بعد أحرقت الحرب كل الفرص؟ هو لا يعرف شيئاً مما حدث ويحدث... أما أنا فأعرف كل شيء.

المفروض أنه مات من زمان... أما أنا فما زلت حيّاً، ولا أدري من أين عاد الآن، ولماذا؟ بل لا أدري إذا كان يجب علي أن أدعوه ليذهب معي؟».

«تعال أيها الشقيّ. تعال معي».

«إلى أين تدعوني؟ إلى عالم الخلود التافه الذي تعيش فيه؟».

«وهل المجهول التافه الذي نذرت نفسك لأجله أفضل من الخلود التافه الذي أعيش فيه؟».

«يقظة الحياة ما تزال لي، وكلما أشرقت الشمس أتجدد بطاقة أشعتها التي تغمرني... أما أنت فيمكنك أن تذهب إلى النوم... لكنك أتيت إلى السوق... فماذا ستشتري؟».

«لا تشغل بالك بي أيها الظلّ... أم لعلك نسيت أنك ظلّي؟».

«بل أنت».

«لا أريد أن أناقشك... لأننا لن نتفق».

«أعرف أننا لا نسير في طريق واحد... أنت ستعود إلى بيتك المتواضع وكأنك عائد من رحلة إلى المجرات البعيدة... أما أنا فقد نذرت نفسي لأعيش في شوارع هذا العالم بتصالح كامل، وأنصحك بأن تفعل مثلي».

«لماذا أفعل مثلك؟».

«لكي تتخلّص من رومانسيتك التي لا طائل منها... إنك تحاول أن تكون إلها!! كيف ذلك وأنت عاجز عن دفع تبعات الحرب عن نفسك؟

أعرف أنّ بيتك متواضع... لكنك تتمنى لو أنك تملك قصراً جميلاً، وتتمنى لو أنك تملك مالاً كثيراً... لكن انتبه... حتى القصور التي بناها الأثرياء عندما تدكّها قذائف موجهة من جهة ما لن تشعر هذه القذائف بالخجل... هل تعرف السبب؟ لأنّ هذه القصور ليست أكثر من جهد مسروق من أجل المتع العابرة...».

«مع ذلك أتمنى أن تأتي معي. ربما أحتاج إليك».

«حتى لو أردت... لا أستطيع... لقد قطعت الحرب كل ما بيننا أنت تعرف ذلك».

«أجل أعرف».

هذا ما قاله السيّد (ن) وهو يتابع تقدّمه. لكن في تلك اللحظات رفع رأسه قليلا ليرى الشارع الممتد أمامه. إذ كان نظره قبل ذلك منصبّ أمام قدميه فقط، وحينذاك رأى شرطيّاً يصفّر في صاحب سيّارة أوقف سيّارته في مكان لا يبدو مناسباً... لكنّ صاحب السيّارة سرعان ما غادر السيّارة باتجاه الشرطي ويده مضمومة، وعندما اقترب منه وضع شيئاً في يده وهو يكلّمه ويبتسم. فهزّ الشرطيّ رأسه علامة الموافقة.

هذا المشهد المألوف أزعج السيّد (ن) فعاد أدراجه وهو يتمتم بكلمات دعائه الذي لا يعرفه أحد غيره.

* * *

تحت السنديانة

في ذلك الصباح القائظ، وبنحو التاسعة تقريباً. قصد العجوز أبو يزن دكان الشاب ساري للجلوس تحت السنديانة، واللعب أيضاً بطاولة النرد مع أبي نادر. فلما وصل كان أبو نادر جالساً ينتظره.

تصافحا قبل البدء باللعب. إذ كان أبو نادر أصغر سنّاً وصاحب فكاهة. بخلاف العجوز الذي جعلته الأيام أكثر ميلاً إلى الهدوء مثل ظلّ تحركه الشمس فقط. فلما حضر ساري. دار الحديث بين الثلاثة كالمسافرين على غير هدى. أبو نادر قال متسائلاً:

- ما جديد الأخبار؟.

أجاب ساري:

- يتحدثون عن زيادة في الرواتب، والشائعات تقول أنّ الزيادة قد تكون مقبولة. لأنّ الغلاء فاحش، والرواتب كما هي الآن عيب من المعيب أن يستمر.

لم يجد أبو نادر في هذه الإجابة ما يقنعه. فقرّر أن يسأل عن أمر آخر.

- كم أصبح سعر تنكة الزيت. السنة ما فيه موسم.

قال الشاب:

- والله نار. يقال أنّ سعرها بلغ مئتي ألفاً وأكثر.

قال ذلك، ثم اتجه إلى العجوز الذي كان صامتاً يصغي ليقول مجدداً.

- بالأمس اشتريت يا عمي تنكة المازوت بسبعين ألفاً.

قال العجوز:

- كان راتبي الشهري يشتري عشر تنكات زيت. الآن يلزمني راتب ثلاثة شهور لشراء تنكة زيت واحدة، والزيت من عندنا.

في تلك الأثناء حضر أحد الزبائن. فقام ساري ليستقبله، ثم حضرت سيدتان لشراء الخضار أيضاً. لكن ساري لم يغب طويلاً. فلما عاد. تابع أبو نادر قائلاً:

- الأمور تسير من سيئ إلى أسوأ. لكن هناك من يقول بأنّ كل شيء سوف يتحسّن بعد القسم، ومن يعش سيرى أنّ ما بعد القسم ليس كما قبله.

قال ذلك وهو ينظر إلى العجوز كأنه يحثّه لأن يقول شيئاً. حتى الشاب كان يأمل من العجوز أن يبدي رأيه. لكن العجوز ظلّ صامتاً. لأنه كان يفكّر، والحق أنه كان يفكر في الشعب والإشاعات. بل كان يفكّر في مصداقية تلك الفقرة التي قرأها منذ أيام:

«الشعب طفل يصدّق كل ما يقال له... الإشاعة بالنسبة له حقيقة، والقول عنده يجب أن يستحيل لتوه عملاً، وهو. أي الشعب. يعيش، ويجعل الفرد يعيش بين الحلم واليقظة... بين اللاشعور والشعور. حيث

تتكون الخرافات، والأغاني، والحكم التي لا أحد يعرف مؤلفها. الفرد الذي يسهم في إنشائها ينطق بلسان الجميع... أي عندما يروي أحدهم مؤكّداً أنه رأى الجنيّ. يكون قد رآه فعلاً، ولكن ليس بعينيه. بل بعيون الجماعة التي تضع القصة في حالة هيجان جماعي بحثاً عن سبب لكارثة ما، أو لعمل تريده خارقاً».

في تلك الأثناء كان أبو نادر يراقب العجوز وهو فاغر فمه. فلما التقت نظراتهما. سأله:

- ما بك يا ختيار... تمسك الزهر بيدك، وتشرد بذهنك... بالله عليك قل لي: أنا ماذا أفعل؟.

أجاب العجوز:

- كنت أفكّر في ما كلّ ما يقال... بخاصة أنّ الناس تحتاج إلى الأمل، وتحتاج إلى اليقين أيضاً، وهي عندما تعجز عن إيجاده في الواقع. لا بدَّ أن تبحث عنه في الإشاعة، وفي الخرافة، وفي الحلم أيضاً، ونحن كما تعلم يا صديقي في وضع صعب جداً...

قال أبو نادر:

- بتنا والله غير قادرين على الحركة حتى ضمن بيوتنا. مسمّرين الله وكيلك.

ضحك العجوز وقال:

- من تسمّر أصبح شاعراً، ومن تحرّك أصبح لصّاً. اللصوص والشعراء صاروا أكثر من العمال.

- والعمال لا يعملون... الأشغال متوقفة، والكل على الله.

قال العجوز:

- الله عليك يا أبا نادر. كل هذه الدوشيشات التي تأتيك وتنقّ! ما الذي يرضيك لنعرف كيف نتعامل معك؟.

فأجاب الشاب:

- نعم صدقت يا عمّ، ومن المرجّح أنّ هذا النقّاق سيفوز عليك، وقد تخسر الرهان. على ماذا تراهنتما؟.

قال أبو نادر:

- لا أتوقع منه الثمين والكثير. لكن لا بدَّ أن يقدّم لنا شيئاً.

- عندما تفوز سأعطيك سكّرة بالنعناع. لا تقلق.

- ألا ترى أني فزت الآن؟.

- أجل أرى، وهذه سكّرة لك، وهذه لساري، وهذه أعشاب المليسة التي سنشرب منقوعها. ساري سيتكفل بتسخين الماء.

ضحك ساري وقال:

- سأعدّها وأحضر الكؤوس.

فقال أبو نادر:

- أحضر يا بني... أحضر... الدنيا بلا شراب خراب.

فسأله العجوز:

- وإذا كانت خراب. كيف تصبح مع الشراب؟.

- تصبح خراب وشراب.

هذا ما قاله أبو نادر وهو يغلق طاولة النرد ليفسح مكانا لكؤوس المليسة. فلما أحضر ساري الكؤوس. أخذ أبو يزن وأبو نادر برشف الشراب والتلذذ بنكهته ورائحته.

بعد رشفتين أو ثلاث. قال أبو نادر:

- رغم القيظ الذي نراه في هذه الشمس الحمراء... ما يزال الصباح منعشاً وطيباً.

- أجل أوافقك.

- ستوافقني طبعاً. أنا أبو نادر يا رجل.

صمت العجوز ملتفتاً إلى صوت بوق شاحنة حضرت فجأة. ذلك أن صوت البوق كان مزعجاً جداً. فقال أبو نادر:

- إنه نافخ الصور، والآن حانت القيامة. سيارة الخبز حضرت، وسترى الناس سكارى وما هم بسكارى... ليتنا حضرنا باكراً قليلاً، ثم قام كالمعتوه. فقلب الطاولة وطيّر الكؤوس الثلاثة.

* * *

الخن فن

هم بضعة جيران. ولدوا في مزرعة صغيرة، وهرموا فيها، ومن المرجّح أنهم ما زالوا يكدحون... لأنهم لم يفرّطوا بقطع الأرض التي ورثوها عن أبائهم، ولم يقتلعوا أشجارها إلا في الأماكن التي بنوا فيها مساكن تليق بزمنهم. إذ كانت لهم أعمالهم التي يكسبون منها عيشهم كالوظائف، أو المهن، وغيرها.

وبطبيعة الحال لم يكونوا أثرياء ولا فقراء. بل ربما كانوا في أولى درجات الطبقة الوسطى. يحاولون بقدر استطاعتهم ألا يتراجعوا إلى ما دون هذا المستوى بخاصة في زمن الحرب التي بدت بعد عقد من الاختبار كأنها موجهة ضدهم. أي ضد الطبقة الوسطى تحديداً. مع كل ما رافق هذه الحرب من موت، وهجرة، وتضخم، وغلاء، وضعف في الدخل. هذا غير الشعور بالإحباط والاغتراب.

كل هذه المواجع التي لا مفرّ منها أثرت في سلوكهم العام. بل يمكن القول أنها جعلتهم عاجزين... لا قدرة لهم على التأثير في واقعهم، ولا رغبة لديهم في اجترار أخبار الواقع التي أصبحت بلا معنى. حتى صاروا إذا التقى أحدهم بالآخر صدفة. اكتفى هذا الأحد بإلقاء السلام فقط.

ربما هو الحذر الشديد من كل شيء، وربما لأنّ كل الآمال، وكل المبادرات، وكل الأوهام كانت لها نتيجة واحدة. كل شيء يسير من سيئ إلى أسوأ.

هذه المواجع المتلاحقة جعلتهم يفقدون الثقة بأي كلام يطرق مسامعهم. أما الأحلام فباتت في أنظارهم أمراً معيباً ومؤذياً إلى حد بعيد. حتى ضوء النهار ما عاد يعني لهم شيئاً، وما كان لظلام الليل أن يقدّم لهم سوى الذهول، ومن الخطأ القول أنهم كانوا متيقظين، أو يبحثون عن اليقظة التي تجعل المرء مهتمّاً، أو قابلاً للاستثارة لما يمكن أن يلاقيه من مباهج أو نكبات، وأسوأ من كل ذلك هو عدم فهمهم لكونهم أحياء. يعيشون كالأحياء ليكونوا شهوداً على من يأخذهم الموت، وما أكثرهم.

هذا الوضع جعل واحداً منهم أكثر ميلاً إلى ترقب حدث ما... أي حدث يحرك حياتهم الراكدة... فلما مضت عدة أيام دون أن يرى جاره الخن فن. اعتقد أنّ هذا الجار قد يكون مشرفا على الموت. فذهب حالاً وأخبر بقية الجيران أنّ جارهم (الخن فن) ليس بخير، وقد يكون مشرفاً على الموت، ثم عاد إلى بيته وجلس ينتظر ورودهم.

خلال دقائق فقط شاهد أربعة من الجيران يأتون تباعاً إلى بيت (الخن فن) آخرهم جاء وهو يجرجر قدميه كأنه لا يريد أن يصل أبداً. لكنه وصل وشاهد (الخن فن) في بيته سليماً لا عيب فيه. فأخذ يحرّك يديه باستغراب كبير وسط استغراب الحضور. لأنه كان يريد أن يقول شيئاً،

وقد بدا وهو يحاول النطق بالكلمات المناسبة كأنه يسحبها من أعماق المحيط، ثم إذا به يقول:

- إذن أنت لست مشرفاً على الموت يا جار؟! هذا أمر جيد!! لكن لماذا أخبرني جارنا أنك...؟ كيف حدث ذلك؟.

أجاب (الخن فن) وهو واقف بين الواقفين:

- لا علم لي بشيء، ونحن جميعاً ننتظر حضور جارنا الكريم لنعرف منه القصة. أظن أنه يجب أن يحضر حالاً إذا لم يكن قد ذهب ليخبر آخرين بهذا الخبر السيئ.

قال آخر:

- أظنّ أنه لم يذهب ، وهو آت الآن. رأيته من النافذة.

ثم ما هي إلا لحظات حتى دخل الجار صاحب الخبر بهيئة الواثق من نبله واحترامه لهم جميعاً، وقبل أن يبادر أحد بسؤاله عمّا حدث. عاجل بالقول:

- أعترف أنني أخطأت عندما لم أتحقق من الأمر قبل أن أخبركم. لكن تعرفون كيف يقع خبر الموت على النفس عندما نسمع به، أو عندما نظنّ بوجوده. خاصة وأنّ جارنا الخن فن لم يغادر بيته منذ أيام، والموتى كما تعلمون يشيعون يومياً، وهم أكثر من أن نحصي عددهم... لكن وبما أنّ جارنا (الخن فن) بخير... يمكننا أن نحمد

الله على سلامته... كما يمكننا أن نشرب القهوة أيضاً. هذا ما أراه الآن، وقد أوصيت زوجتي أن تكون جاهزة لإعدادها إذا رغبتم أن تشربوها في بيتي. أما إذا رغبتم أن تشربوها هنا. أظن أنّ جارنا (الخن فن) لن يمانع.

فقال الخن فن:

- طبعاً لن أمانع، وأظنّ أن زوجتي تعد القهوة الآن. تفضلوا واجلسوا. فنحن لم نجتمع منذ زمن طويل.

قال الرجل صاحب اليدين المنهكتين بسحب الكلمات من أعماق المحيط.

- تريدنا أن نتحدث؟! بماذا سنتحدث؟! وهل هناك معنى لأي كلام نقوله. يا عزيزي (الخن فن) كلام أشباه الموتى لن يكون حيّاً بأي حال من الأحوال.

فقال أحدهم:

- ولو يا جارنا طول بالك.

- لماذا...؟ إذا كنت أنا أتقيأ من الكلمات التي قد أفكر في قولها. فكيف سيكون حالي عندما أسمع كلامك؟!. لا... أنا أعتذر. اشربوا القهوة وتحدثوا بما تشاؤون. قال... نتحدث قال...

قال ذلك وغادر. فقال جار آخر:

اسمحوا لي أن أتبعه لأنه مصيب تماماً، وحالي ليس أفضل من حاله.

فنظر الجاران اللذان حضرا بسبب الخبر الكاذب في وجهي بعضهما ليقررا بتلك النظرة الخاطفة ما يجب أن يفعلاه، وفعلاً كانا قد قررا واتفقا. إذ غادرا حالاً دون أن ينبسا ببنت شفة. فقال صاحب الخبر الكاذب:

- أظن أنك رأيت بنفسك يا جاري (الخن فن) أنّ خبر موتك المزعوم جمعهم. أما خبر وجودك حيّاً فجعلهم يغادرون. ربما هو الشعور بالواجب تجاه الموت بعدّه حدثاً له من الأهمية ما لا تستطيع الحياة أن تمنحنا مثله. أيا يكن الأمر فأنا أهنئك. لأنك حصلت على شرف الموت في أذهانهم بعض الوقت.

قال ذلك و(الخن فن) صامت يداعب بأصابعه الهزيلة سبحة صفراء قديمة. ربما ورثها من أبيه أو عمّه. ولأنّ (الخن فن) لم يقل شيئاً. تابع الجار صاحب الخبر كلامه قائلاً:

- أظنّ أنّ القضية برمتها في مكان آخر، وربما هي تستحق كلاماً آخر. لكن حتى هذا الآخر قد يكون لا شيء. بل هو لا شيء حتماً. تماماً مثل كل الكلام الذي نتفوه به وندور في فراغه الآن. لكن بما أنك الشاهد الحيّ على كلامي. من الأفضل ألا أقول شيئاً. هل تعرف السبب؟ لأننا نعيش منذ عقد كامل في زمن الموت، وفي زمن الموت... اللاشيء أكثر حضوراً من الشيء. ألسنا الآن في زمن الموت؟ أظنّ أنك

توافقني؟ وما دمنا كذلك. أرى أنّ كل شيء فينا يموت، أو نموت بكل ما فينا. الأمران واحد كما أظنّ، ولا أرى أي قيمة لأي شيء في الأمرين معاً. لا قيمة لأي شيء، ولا معنى لأي شيء.... لا معنى لأي شيء...

قال ذلك وخرج... فجلس (الخن فن) في مقعده وكأنّ شيئاً لم يكن. أي كأنه لم ير شيئاً، ولم يسمع شيئاً...

* * *

الهيئة العامة السورية للكتاب

نهر الآلام

في آخر النهار، وتحديداً مع حلول المساء، وهبوط العتمة الشفافة التي تغطي كل شيء... أدخلا العجوزان العنزات إلى الزريبة، والدجاجات كانت قد دخلت ونامت أيضاً. فأصبح البيت هادئاً تماماً. إذ لم يعد هناك ضجيج من أي نوع. فقط بقيت زفرات الضجر والتعب تخرج من صدري الزوجين العجوزين بحكم العادة، وكأنّ الأمر طبيعي ومألوف ولا قيمة له.

في تلك الأثناء، وبعد استراحة قصيرة. أحضرت الزوجة منقوع الأعشاب الساخن ليشرباه في جلسة آخر النهار. كما صار بإمكان كل منهما الاضطجاع على أريكته دون أن يزعجهما أي شيء، وحتى دون أن يحتاجا لأن يتبادلا كلمة واحدة.

وفي حين أخذ الزوج يدخن وهو يحتسي شرابه. فإنه سرعان ما وجد نفسه في مكان يراه لأول مرة في حياته، ودون أن ينتبه إلى تقلصات جبينه... رأى نفسه يسبح في نهر بديع. مياهه عذبة نظيفة، والحصى في أسفله نظيفة أيضاً. ما جعله يحس باستمتاع كبير... بل إنه استمتع خاصة بصفاء ذهنه ورحابته غير المعتادة... كأنّ ذهنه انفتح على ألق يبشّر بكل ما هو جميل...

ومع ابتسامته التي رأتها زوجته واضحة ومثيرة للضحك... يمكن القول أنّ وجوده في ذلك المكان الجميل كان قد أعجبه كثيراً، وأكثر ما أعجبه فيه...

انعتاقه من أحمال ثقيلة كانت ترهقه. فكأنها سقطت عن كاهله مرة واحدة ليصبح رشيقاً وخفيفاً.

لحظات مضت وهو يترقب الحالة الجميلة التي تغلغلت في ذهنه لتزيل منه كل الكدر الذي كان فيه، ومن المرجّح أنه لم يشعر بالخوف إلا قليلاً عندما رأى تمساحاً ضخماً يعبر النهر على مقربة منه. ما دفعه إلى السباحة مبتعداً دون جلبة تذكر إلى أن رأى التمساح يترنّح على الضفة الأخرى...

رؤية التمساح عكّرت مزاجه قليلاً، وصفاء ذهنه تلاشى كأنه لم يكن... «لو أنه لم ير التمساح لبقي حاله أفضل» هذا ما فكّر به وهو يحاول استعادة الصفاء الذي كان يشعر به قبل أن يرى هذا الوحش المفترس.

وللحقيقة هذا ما فعله، ثم مرّت لحظات أخرى... مرّت بطيئة وثقيلة، وها هو يرى رجلاً يمرّ بمحاذاة النهر... هيئته ليست مألوفة، وربما كان يعتزم المرور دون أن يجامله بكلمة واحدة. فأخذ يخمّن ويتساءل... من هذا الرجل؟ هيئته غريبة، وهو - أي العجوز - كأنه جاهز ليكون بين يديه...

- ألست عزرائيل يا سيدي؟ إذا كنت عزرائيل خذني معك. لأني تعبت من انتظارك.

هذا ما نطق به العجوز وهو يتأمل هيئة هذا الرجل الذي أصبح بمحاذاته تماماً. فجاءه الجواب.

- أنا جبر... فلاح من هذه الناحية.

- ظننت أنك قادم من أجلي. لا تؤاخذني. فأنا غريب هنا، وهذا المكان أراه أول مرّة. لقد رأيت تمساحاً منذ قليل. انتبه قد يؤذيك.

فأجابه الفلاح وهو يبتسم هازئاً:

- لا تقلق بشأني. لكن أشكّ بأنك رأيت تمساحاً.

- لقد رأيته. فكيف تشكّ بي؟.

- الغرباء دائماً يتكلمون عن أشياء لا وجود لها... يأتون وكأنهم مطاردون. بل كأنهم تعبوا من المطاردة، وعندما أخبرهم أنّ هذا النهر هو نهر الآلام لا يصدقون...

- هذا نهر الآلام؟! لماذا؟ إنه نهر مثل غيره... بل وأعذب من أي نهر رأيته. أما عن قولك أني مطارد... فكلامك صحيح، وقد تعبت حقاً من مطاردة الشقاء والغلاء... أما الموت فإنه يطارد الجميع إلا أنا... عشر سنوات من الاحتراب والخراب، وما زالت فصول مأساتنا تتوالى...

- أعرف بماذا تفكر، وأعرف أنك واهم كغيرك.

لم يعجبه استهتار الفلاح به. فقال له معاتباً:

- أفهمك مرّة، ولا أفهمك مرّة. ما بك يا رجل؟.

قال الفلاح:

- عندما تبتعد عن هذا المكان. سترى أني وهذا النهر الذي تستحم فيه الآن لسنا أكثر من وهمين مرّا في حياتك... أما إذا أمعنت النظر

جيداً في كل سني عمرك. ربما لن ترى سوى القليل من الأوهام والمعارف. لكن كيف وجدت السباحة هنا؟ أقصد كيف نزلت إلى مياه النهر؟.

- لا أعرف... صدقني لا أعرف.

- أصدقك، وأعرف أنك لا تعرف. لأنّ أحداً لا يختار نهر الآلام ليسبح فيه. لكن لا بدَّ أن يسبح فيه... بل لا بدَّ أن يسبح بدموعه إذ شئت أن تعرف جوهر الحقيقة...

- جوهر الحقيقة؟! يا لها من عبارة!! الحقيقة أصبح لها جوهر؟!.

فقال الفلاح:

- المقهورون يستحمون بدموعهم، والأشقياء يستحمون بدموع الثكالى.

حينذاك طلب منه العجوز إيضاحاً. لأنه لم يفهم ماذا يقصد تماماً بعباراته الغريبة. إلا أنّ الفلاح جبر لم يعطه الجواب... فقط بقيت ابتسامته الهازئة كما هي مع حزن كبير حطّ على وجهه قبل أن يتابع قائلاً:

- عندما ترى قطرات المطر تسقط من الغيمة السوداء. تقول في نفسك. يجب أن تسقط، ثم تراها وهي تغور في الأرض... فتقول مرّة أخرى... يجب أن تغور في الأرض...أما السجناء الذين يقضون حياتهم في ذلك السجن الرهيب عند مصب النهر فأنت لا تراهم، ولا ترغب في الاقتراب من سجنهم. لكنّ مدير السجن وأعوانه يرونهم، ويجمعون منهم ثروات طائلة...

- سجن عند مصب النهر؟!.

- إذا كنت تجرؤ. اذهب إلى مصب النهر وسترى.

هذا ما قاله جبر قبل أن يمضي مبتعداً. فنظر العجوز حوله وكأنّ رعباً أصابه. إلا أنه وبدل أن يشاهد ما يعينه على البقاء في ذلك المكان... وجد نفسه على الأريكة والسيجارة في يده لم تنطفئ بعد... كما شاهد زوجته تنظر إليه وهي تبتسم. فسألها:

- ما الأمر. أراك تبتسمين؟.

- أجل رأيت ما يدعوني إلى الضحك... لكني اكتفيت بالابتسام فقط.

- أنا السبب؟.

- لا تشغل بالك. الأمر طبيعي جداً... كلنا نرحل كما رحلت أنت.

- ألا تودين أن تعرفي أين كنت؟.

- لا... ليس الأمر ضرورياً.

- معك حق. إذ لا شيء ضروري في هذا الوقت سوى الاستلقاء في السرير عسى أن يكون النوم أعذب من سواه.

قال ذلك ونهض إلى سريره ليستلقي عليه. أما زوجته فبقيت في مكانها. إذ كان لديها أعمالا أخرى يجب أن تفرغ منها قبل النوم.

* * *

الخضّاضة

عاملان يعملان في محل لبيع المفروشات... المحل تابع لشخص يمتّ لهما بصلة قربى. أشفق عليهما هذا القريب ليعملا في محلّه الجديد. علماً أنّ كل محلاته جديدة، وكلها رغم كثرتها بحالة ممتازة بعد أن أغدقت عليه الحرب أموالاً طائلة...

أحد العاملين واسمه محمد... خريج كلية الآداب... قسم الفلسفة. يقرّب فنجان القهوة من فمه ليأخذ رشفة. لكنه يقول أولاً لزميله بسّام الذي حصل على الثانوية التجارية:

- أصبح حميدان غنياً، ونحن نشتغل عنده كي لا نتشرد، أو نموت على جبهات القتال...

فقال بسّام وهو يضع فنجان قهوته على الطاولة:

- الله اختاره ليكون كما تراه... كأنّ هذه الحرب قامت ليصبح ثريّاً. كيف حدث ذلك... والله لا أعلم... لكنه طيب معنا.

- أجل هو ينفق الكثير... لكن ماذا عن الآلاف الذين ماتوا قرابين لأجل ثرائه.

- لم يجبر أحداً على التطوع معه، وكل من اختار هذا الطريق كان ينشد مصلحته.

- هي الظروف إذاً...

- أجل... الحرب أوجدت الظروف المناسبة له.

- من بائع أوراق يا نصيب إلى بطل حرب ثري... الأمر يعصى على الخيال... لكنها الحرب كما قلت يا صديقي، والحرب خضخاضة رهيبة...

- خضخاضة... أم خضّاضة؟! كيف؟ ماذا تقصد؟.

- باللغة الفصحى هي خضخاضة. من الفعل خضخض. لكنها في لغتنا خضّاضة، وأظنّ أنك تعرفها... لا أقصد الخضاضة الكهربائية رغم أنها تخضّ وتقوم بالعمل نفسه. بل تلك المصنوعة من الجلد والتي تحركها صاحبة البيت بحركة ترددية أفقية لفصل الزبدة عن العيران...

- طبعاً أعرف هذه الخضّاضة، وأعرف الزبدة، والعيران، والقريشة، وكل هذه المشتقات...

- الزبدة أخف من العيران. فتطفو حبيباتها على السطح نتيجة الخضّ، وبعد فصل الزبدة. تقوم صاحبة البيت بتسخين العيران. لتطفو حبيبات القريشة على سطح السائل المتبقي. إذ لا يبقى سوى الماء...

- الكلام سليم...

- عندما يتعرّض شعب إلى غزو خارجي... يتحرك كتلة واحدة لمواجهة الغزاة، وتكون هناك خضّاضة واحدة. لكن عندما تكون الحرب

داخلية... فالشعب يصبح كتلاً متحاربة، وهنا تكثر الخضّاضات، والزبدة تصبح زبدات، والقريشة قريشات، وتجار الحرب يقبضون ويأكلون الزبدة والقريشة كل حسب خضّاضته...

- هكذا إذن...

- أجل يا صديقي، والخضّاضات لم تكتف بخضّنا نحن البشر. بل خضّت الحيوانات، والنباتات، وحتى الجمادات لم تسلم من الخضّ... إذ تهدّمت أحياء كثيرة، وتهدّمت أسواق كثيرة، والكثير من الناس نزحوا، أو هاجروا، أو ماتوا. حتى الأغنام والأبقار والحمير تم تهريبها، أو سرقتها، أو قتلها... لكن مع ذلك بقي الخضّ عند سيدات البيوت قائما رغم قلّة الأبقار، وقلة الحليب...

- الكلام سليم...

- والآن دعنا نرى ماذا كتب أصدقاؤنا...

قال محمد ذلك وهو يشغّل هاتفه، وبعد أن استقرّ على الصفحة التي يريدها أخذ يقرأ:

«وتحرق الغيمة أبراج العدم،
وتنحني الهامات لموجة البحر الغبارية.
أما موسيقاك أيها الشرق المفدى،
فستنطق بكل أقحوان النغمات الميتة...».

- ما هذا...؟.

- شعر أحد الأصدقاء.

- لا أعرف. لكن أظنّ أنّ الكلام جميل...

- دعنا لا نكترث بالشعراء. لأنهم في كل واد يهيمون...

- نعم... لأننا يجب أن نهتم بمفروشات معلمنا. لكن هل تعرف هذا الشاعر؟ من يكون؟.

- أجل أعرفه، وأنت تعرفه أيضاً... مهووس بنفسه... ومهما حاولت لن تنجح في انتشاله من هذا الهوس... إنه جاهز دائماً لأن يلاحقك بشعره... حتى لو ذهبت إلى المرحاض سيلحق بك ليرجمك بشيء من إبداعه العظيم.

- يا الله... ما هذا الذي تقوله؟.

- ربما أنا أهذي... لا تكترث... لكن أظنّ هذه الكنبة تستحق أن تشرب بعض القهوة...

قال محمد ذلك وسكب ما بقي في فنجانه على قماش الكنبة.

فوقف بسام مذهولاً وهو يقول:

- ماذا فعلت يا محمد؟ بحق الشيطان ماذا فعلت؟ لماذا يا محمد... لماذا؟

قال محمد:

- لأني أريد أن أرتكب جريمة...

- أنت ترتكب جريمة؟ مستحيل...

- أعرف أنني غير قادر، ولو كنت قادراً لقتلت أبي قبل أن آتي إلى هذا المكان.

- تقتل والدك... لماذا؟.

- لأنه أنجبني... هل عرفت السبب؟.

- لا... لم أعرف... لكن لا يهم... ابتعد لأنظف القماش، وبعد ذلك نتحدث، وإذا شئت يمكنك الذهاب إلى أي مكان تريده... اذهب الآن... اذهب، وبعد أن تهدأ. عد وستجدني بانتظارك. لن أخبر أحدا بما فعلت...

فخرج محمد... لكنه لم يعد أبداً...

* * *

الهيئة العامة السورية للكتاب

اليوم الأول

إنه الخريف بكل سحره المأساوي. النهار اعتدلت حرارته، وبعض أوراق الأشجار اصفرت وسقطت... أما البرودة الطيبة فكانت تلاحق المدرّسة (ر) من ظلّ لآخر وهي في طريقها إلى المدرسة بعد أن تاهت شهوراً في فضاء بلا حدود...

لم تصل إلى النجمة التي كانت فوق رأسها، ولم تستطع البقاء دون ظلّ يؤنس وحدتها... فعادت إلى بيتها ومدرستها.

في الصباح تزينت لأجل هذه النزهة... إذ لا دوام حقيقي في اليوم الأول، والوقت الذي ستمضيه سيمرّ بين رؤية زميلاتها وتلميذاتها، ولا بدَّ أن تحصل على برنامجها الأسبوعي.

الساعة الآن التاسعة صباحاً. إنه وقت طيب بالنسبة لها، والشارع ليس خالياً، وليس مزدحماً... فقط هناك صبيّة جميلة قادمة نحوها. فكّرت المدرّسة أن تطلب منها التقاط صورة لها بواسطة هاتفها... صورة تذكارية تحتفظ بها لأجل الأيام القامة...

أعدّت هاتفها وطلبت من الصبيّة التقاط الصورة... الصبية لم تمانع... لكنها ضحكت عندما رأتها تقف خلف الشجرة... فقالت المدرّسة:

- أجل لا تستغربي لأني أحبّ دائماً أن تكون صورتي خلف شجرة.

التقطت الصبيّة الصورة وأعادت لها هاتفها، ثم مضت في سبيلها... فتابعت المدرّسة طريقها أيضاً، ثم إذ بها تقول لنفسها...

«أكون سعيدة عندما أفكّر. لكن عندما تصبح الأفكار سراباً في صحراء. يصبح التقاط صورة لي أمراً لا بدَّ منه... تبقى معي على سبيل الذكرى... البعض يطلب رؤيتها لقراءة ملامح وجهي... ما يجمعني بهؤلاء. الغربة والصداقة... إذ نحن أغراب وأصدقاء في وطننا الذي ضاق بنا...

وكثيراً ما نتساءل... ما بال إنساننا يدمر مدنه وأريافه دون أن يصحو من سكرته التي أخذته بعيداً في حبّ السيطرة... لقد كلّفنا حتى الآن سكره وجنونه ما لا يطاق من ارتكاب الفظائع التي يندى لها جبين الإنسانية... في حين أني رأيت الكواكب تسير في مداراتها مطمئنة... هادئة... تتعبّد خالقها بصمت وخشوع كبيرين...

يا للغرابة... إذ كيف يمكن لإنسان أن يتحول إلى صاعقة تضرب بيته، وكيف يستطيع أن يتحول إلى ريح تقتلع أشجاره، وكيف يستطيع أن يتحول إلى بارود ينفجر ويحرق أبناءه... كيف ذلك؟.

ويقولون لي أنت وحيدة، وعندما أعترض... يقولون: أنت وحيدة في عالمك الداخلي. لأنّ داخلك مغلق، والهواء الذي ينفذ إليه أو يغادره من الشقوق يكفي فقط لتجدده.

لكن حتى لو كان افتراضهم صحيحاً. أين العيب في ذلك؟ ألست عالماً مستقلاً بذاته؟ بل ألست صورة عن هذا العالم الكبير؟ حتى الله ما يزال يبحث كيف يجب أن أكون. لأني منطلق الحياة وغايتها، وبهذا المعنى لست مختلفة عن غيري إلا بما فطرت عليه من محبة الناس على اختلاف مشاربهم وانتماءاتهم. فأنا لا أكره أحداً، وأنا أمّ مثل كل الأمهات.

مهلاً... مهلاً... ليس هذا ما أريد قوله:

قالت ذلك مستدركة الخطأ الذي لاح لها... إذ رأت أنها تنزلق في حديثها مع نفسها لتقدم خطاباً فارغاً كحبة الجوز الفارغة، وما أكثر خطابات السوريين الفارغة. إذ تراهم يتحدثون عن سورية الحضارة... سورية التاريخ... سورية الأبجدية. في حين أنها ترغب في القول لهم...

«توقفوا يا سادة... توقفوا عن هذا اللغو الفارغ، واعملوا على إيقاف هذه الحرب التي تلتهمنا، وبعد أن تفهموا أنّ الحضارة السورية ليست أنتم، وليست انتماءاتكم التي تمزقها إرباً، وبعد أن تصبحوا جديرين بالسلام فيما بينكم... أملؤوا حاضر سوريتكم هذه بالحب، والمعرفة، والعلم، والسلام... أملؤوها بالحب، والفن، والجمال... أملؤوها...».

لم تكمل جملتها بسبب اليد التي أمسكت ساعدها. فلما استفاقت من شرودها. وجدت زميلتها ذاهبة هي الأخرى إلى المدرسة... فتصافحتا وتبادلتا القبل وهما تضحكان، ثم قالت زميلتها سائلة.

- كيف كانت أيام الصيف معك؟.

- سافرت...

- إلى أين؟.

ضحكت وقالت:

- إلى الأعالي...

- أجل... سطح بيتكم من الأعالي، والمهم أنك تعيشين في بيت فوق الأرض.

- وأنت ألا تعيشين في بيت فوق الأرض؟ أعرف أنّ بيتكم جميل.

- انتقلنا إلى قبو لا تدخله الشمس.

- لماذا؟.

- لم نستطع دفع الإيجار. فانتقلنا إلى مكان أقل كلفة... زوجي يعمل في النهار وفي الليل، وأنا مثله أعمل، والنتيجة...!! لا نستطيع أن نسد رمقنا...

- الحالة صعبة علينا جميعاً...

- نعم صحيح، ويبقى الفرق في درجة الضغط، وقدرة كل جسد على تحمل تبعاته...

- نسأل الله العافية لنا جميعاً، وهذه هي المدرسة... لقد وصلنا...

اليوم ليس أكثر من نزهة...

- من لا يرى سوى هموم هذا اليوم يكون بالنسبة له نزهة... لكن من يرى هموم الأيام القادمة والأشهر القامة. يصبح الأمر مختلفاً...

هذا ما قالته زميلتها وهي تسرع الخطا هرباً من ضجيج التلامذة وشغبهم. أما هي فتاهت بين وجوه التلميذات اللواتي تجمعن حولها...

* * *

الهيئة العامة السورية للكتاب

تحت المطر

عندما أيقظه جرس الهاتف الذي كان يرنّ بإلحاح... انتابته عاصفة من الرعب... ذلك لأنّ الساعة لم تكن قد تجاوزت الخامسة صباحاً، والمطر المتساقط يثير جلبة ترتجف لها الأبدان. لكن ما أن علم أنّ الاتصال من امرأة يعرفها حتى تركز تفكيره بها.

- نعم.

بهذه الكلمة أجاب على الاتصال دون تردّد... فجاءه صوت صديقته **(م)** من الطرف الآخر.

- أريد منك أن تخرج معي الآن... سأنتظرك في ساحة الحريّة.

فسألها باستغراب:

- إلى أين، وما هي المسألة؟.

- إلى شاطئ البحر... هذه هي المسألة.

- الآن؟.

- أجل الآن، وسأعطيك نصف ساعة لتصل إلى الساحة، وإن لم تأت. سأتصل بصديق آخر. أرجو ألا تضطرني إلى ذلك.

قالت ذلك وأغلقت هاتفها. فإذا به ينهض ويفكّر... الكثير من الأفكار تزاحمت في رأسه. ذلك لأنّ معرفته بها لم تكن بعيدة في الزمن، وهو وإن كان

يعيش وحيداً. إلا أنه رسام، وقد مرّ في ذهنه أنّ كل الألوان تعرفه وتتبعه. فهل ينبغي عليه أن يتبع هذه المرأة؟.

آنذاك وخلال برهة من الزمن شاهد برقاً ساطعاً يحرق كل الأفكار التي تزاحمت في رأسه باستثناء فكرة واحدة تردّد صداها مرة بعد أخرى.

«إذا كانت هذه المرأة مجنونة، وأظنّ أنها مجنونة... فيجب أن أرافقها. لماذا؟ لا أعرف».

أضاء مصباح الكهرباء، ثم ارتدى ثيابه وحذاءه، ولم ينس أن يحمل معه معطفاً واقياً من المطر. بعد ذلك غادر مسكنه ومشى متلمساً طريقه إلى ساحة الحرية. فلما وصل وجدها بانتظاره.

- كنت أعرف أنك ستأتي.

هذا ما قالته عندما رأته يقترب منها. فقال:

- أتيت لأوفر عليك البحث عن صديق آخر، وكما ترين... الطقس ليس في صالحك. المطر غزير، وأنت لا ترتدين واقياً. خذي هذا من فضلك.

- لا... لن أرتديه...

- لماذا؟.

- لأني تبللت وغرقت تماماً، وأريد أن أتبلل أكثر لأذوب إن استطعت.

- يا إلهي... ما هذا الجنون؟.

- سمّه ما شئت.

فسألها وهما يسيران.

- كيف جاءتك هذه الفكرة.

قالت:

لم أستطع النوم، ورأيت أنّ حياتي فارغة لا معنى لها. فقررت أن أخرج متحدّية كل ما يعترض سبيلي.

- ولماذا لم تذهبي وحدك، أو لماذا لم تبحثي عن امرأة مثلك؟.

- أولاً لن أجد امرأة مثلي، وثانياً. رأيت من الضروري أن يكون معي صديق أثق به.

- وأنا هو الشخص الذي تثقين به؟.

- أجل.

- أظن أنك تعلمين مسبقاً أنني جاهز لصحبة المجانين، وكما يقول المثل (جنّي لأفرح لك).

قال ذلك وضحك... فأجابته:

- طالما أنك معي. قل واضحك ما شئت. لا يهمني.

وأخذا يسرعان الخطا وهما يجتازان الشوارع شارعاً بعد آخر... يحتميان تارة بالشرفات، ويغوصان تارة أخرى في مياه الشوارع المتدفقة كالسيول. إذ كانت الأمطار المتساقطة لا تعرف إلى أين تتجه.

خلال هذا المسير المضني. قالت له:

- أنت رجل غريب حقاً. أراك تسرع وتجبرني على مجاراتك. علماً أننا ذاهبان لنقف تحت المطر.

- معك حق. إذ لا ينبغي على المرء أن يكون خفيفاً في ظرف خطير كهذا الظرف.

- أين هي الخطورة التي تتحدث عنها.

- ليس الأمر مهمّاً. لأني أريد أن أعرف لماذا قررت الخروج هكذا؟.

- قلت لك.

- بل أزعم أنّ هناك أمراً آخر.

- وحياتك لم أخف عنك شيئاً. لكن المفروض أنني امرأة لا شرقية ولا غربية، وهذا الوسط الضعيف الذي نعيش فيه لا يقدّم لي الهوية التي أعتدّ بها، ولا يقدم لي الحماية أيضاً. لذلك أشعر أنّ الجذب والضغط الذي يأتيني من الجهتين يكاد يسحقني ويفتتني.

- وهل هذا الجذب والضغط موجه إليك وحدك؟ إنه يؤذينا جميعاً. نحن نعيش في قلب العالم، والعالم مريض، وقلبه مريض... فهل ينبغي أن نخرج جميعاً لنسير هكذا... أم تظنين أنّ السير تحت هذا المطر أرحم؟.

- نعم إنه أرحم.

- آمل ألا يرانا أحد.

- اطمئن سنعود قبل أن يرانا أحد.

- حذائي أصبح ثقيلاً بسبب الماء، وأنت تبللت كما ترغبين. سنمرض لا محالة.

- إذا مرضنا من هذا المطر... سننسى مؤقتاً أمراضنا الأخرى.

- أية أمراض؟.

- إذا كنت لا تعرف. دعنا نتحدث في أمر آخر.

قالت ذلك وهي تسرع الخطا. إذ كانا قد وصلا إلى الشاطئ، ولعلّ ضجيج الموج المرتفع وارتطامه بصخور الكورنيش جذبها لأجل لعبة التحدي التي جاءت من أجلها، ولأنّ صديقها كان يدرك كل ما يعتمل في نفسها فقد تبعها بصمت ودون أي تعليق...

أخيراً وقفا أمام البحر، وأخذ الموج الغاضب يلطمهما بذؤاباته العالية على وجهيهما ليسقط بعد ذلك على الرصيف كيفما اتفق. فقد كان البحر غاضباً جداً، والأمواج تشرئب وتجري في سباق محموم لتتكسّر على الشاطئ، والسماء كانت غاضبة هي الأخرى... إذ كانت ملبّدة بالغيوم الماطرة، والمطر يسقط مدراراً...

ومضت بضع دقائق عرفا خلالها الشعور الكامل بالتلاشي من جهة، وبالعظمة من جهة أخرى. إذ كانا مثل إلهين صغيرين منفيين من رحمة هذا

الوجود، أو لعلّهما كانا تحت رحمته مباشرة صامتين ومنتصبين، وطبعاً لم ير أي منهما دموع الآخر.

هو تحمّل الموقف، وأصرّ أن يبقى معها إلى آخر لحظة، وهي أدركت قراره بحدسها. فأخبرته في لحظة ما بضرورة العودة. من المرجّح أنها كانت منهكة وقانطة... فعادا دون أن يتبادلا كلمة واحدة، ثم افترقا في الساحة نفسها ليذهب كل منهما إلى مسكنه.

هو دخل الحمام فور وصوله. فاستحم وعاد إلى سريره دون إبطاء، ولم يستيقظ إلا بعد أن نام بضع ساعات. استيقظ بتكاسل شديد، وأعدّ قهوته وهو يفكر بكل ما حدث، ثم دخل مرسمه وأعدّ لوحة نظيفة ليرسم المشهد الذي استقر في ذهنه عندما وقفا أمام الموج. لكنه اتصل بها ليطمئن على حالها. فلم يسمع صوتها... فقط سمع (الهاتف مغلق).

أخذ يرسم ويتصل، وبقي الجواب هو نفسه.

* * *

الهيئة العامة السورية للكتاب

القبح والجمال

على صخرة الصيادين جلس كل من السيّد (م) وصديقه السيّد (ص) وفي يديّ كل منهما صنّارة يبلغ طولها ما يقارب العشرة أمتار. كلاهما لم يكونا صيادين محترفين... السيّد (م) يملك مكتباً للنشر، وينشر القراءات التي يكتبها في الجرائد المحلية، والسيّد (ص) متقاعد لا عمل له سوى التسكع والبحث عن فرصة لتمضية الوقت.

الصخرة تمتد حوالي أثنا عشر متراً في عمق البحر، وتتسع لحوالي عشرة صيادين من الجهتين، ومن يحضر أولاً يحجز لنفسه مكاناً في مقدمتها ليبدو وجيهاً وصياداً متمرّساً.

إلى جانب الصخرة من جهة اليمين. يمتدّ شاطئ رملي يعجّ بالنساء والأطفال مع القليل من الرجال اتفاقا مع تبدّل الحياة الاجتماعية والاقتصادية التي باتت ثقيلة وثابتة في ظلّ الحرب التي طال أمدها دون أي بارقة أمل بوجود حلّ قريب أو بعيد... أما من جهة يسار الصخرة حيث ينتشر الحصى. فكان يوجد بعض هواة السباحة من اليافعين...

آنذاك ولأنّ الصديقين لم يكن قد مضى على وجودهما سوى بضعة دقائق فقط، والساعة لم تكن قد تجاوزت التاسعة صباحاً. قام السيّد (ص) بإحضار شراب القهوة من محفظة صديقه، وصبّ لكل منهما فنجاناً، ثم سأل صديقه وهو يرشف القهوة من فنجانه.

- ماذا تقرأ في هذه الأيام؟ وماذا تنوي أن تكتب لنا؟.

فأجابه السيّد (م) وهو يضحك ساخراً:

- هل تصدّق أني كنت أفكر قبل أن تسألني... كنت أفكّر في سبب كرهي ونفوري من القبح حتى عندما يكون جميلاً؟ وقد فكرت بذلك لأني رأيت منذ قليل شكلاً قبيحاً ومنفّراً في ثوب جميل.

- الثوب الجميل لا يخدم القبيح... بل يُظهره على حقيقته. عدم المؤاخذة يعني.

- هناك ما يسمى (جمالية القبح) أو جمال القبح، وهو أصعب أشكال الأدب... في أحد الأيام كنت أقرأ رواية لكاتب يوغسلافي نسيت اسمه... أحداث الرواية تدور عند نهر لا أذكر اسمه أيضاً. في تلك الأيام كان الأتراك محتلين لتلك المنطقة، وأرادوا بحسب كلام الراوي بناء سدّ على النهر. إلا أنّ شباب القرية المتضررين من السدّ حاولوا تخريب العمل... ما جعل الحاكم التركي في حالة غضب شديد، وقد هدّد الحاكم حينذاك المسؤول الأمني بالخازوق إن لم يقبض على المخربين...

المسؤول الأمني التركي عاش رعباً حقيقياً من الخازوق، وبعد أن قبض على مخرب واحد وفرار الآخرين. فقد عقله تماماً. مع أنه نجا من العقوبة... ويقول الراوي أنّ الحاكم التركي أصدر أمره بإعداد الخازوق من أجل المخرّب المقبوض عليه... بعد ذلك أخذ الراوي يستعرض أنواع الخوازيق، وطريقة دخول كل منها في الجسم، والمدّة الزمنية التي تلزم لحصول الموت...

أذكر أني قسرت نفسي على متابعة كل هذه التفاصيل. لكني سرعان ما وجدت نفسي أتقيأ، وأخرج من أحشائي كل ما فيها، وأذكر أني قلت لنفسي عقب ذلك إذا كنت قد تقيأت من قراءة هذه المشاهد... كيف استطاع الكاتب أن يكتبها، وأي عقل بارد يملكه؟.

- هذا ما يسمى جمالية القبح أو جمال القبح يا صديقي. هل وضح الأمر؟.

أجاب السيّد (ص):

- ما تفضلت به واضح. إلا أني ما زلت أرفض ربط القبح بالجمال تحت أي ذريعة.

- وأنا مثلك... أرفض هذا الربط، وأنفر منه، وأحاول تجاهله والابتعاد عنه... لكنه يبقى موجوداً...

- بقي أن أعرف ما هو القبح الذي رأيته أنت ولم أره أنا؟.

اقترب السيّد (م) من صديقه وقال:

- انظر إلى تلك الصبيّة التي ترتدي فستاناً أحمر. أتراها؟.

- أجل أراها.

ألا ترى كم هي مزهوة بنفسها مع هذا الثوب الفاقع؟.

- أجل.

- هذه أرملة وأم لثلاثة أولاد.

- وأين المشكلة؟.

- ألا ترى أنها يجب أن تكون أكثر حزناً واحتشاماً؟.

- لا أعلم والله. لكن أظنّ أنّ جمجمتها أشدّ صلابة من جمجمة بغلة، وكما تعلم كلما كانت الجمجمة صلبة. يصبح الدماغ صغيراً. لذلك أظنّ أنّ دماغها ربما هو بحجم حبة الجوز.

- كيف علمت ذلك؟.

- عندما يتعلق الأمر بالجماجم يصبح نظري ثاقباً جداً.

قال السيّد **(م)**:

- إذن لأنها بغلة أرى سلوكها قبيحاً ومنفراً؟.

- ربما... لكن من أين تعرفها؟.

- أعرفها وأعرف زوجها أيضاً. كان شاباً رائعاً. وسيماً... بهي الطلعة. منطلقاً. محباً. قائداً بكل ما للكلمة من معنى، وكان ناجحاً. يفهم المجتمع، ويعرف كيف يتعامل مع كل شخص حسب مستواه.

- رحمه الله.

- هي بعكسه تماماً. طبعها غاية في اللؤم... غبية... تأسرها غريزة القطيع في أضيق حالاتها.

- الأيام ستعلمها كيف تعيش؟.

- كيف ذلك وغريزة القطيع تأسرها؟ إنها لم تتعلم من الحياة سوى أن تكون لئيمة، ولك أن تخمّن في أي مستوى ثقافي هي؟ أراهن بأنها لم تقرأ كتاباً واحداً في حياتها... إنها مثل الحاج بكري، وكما تعلم يا صديقي فإنّ الحاج بكري يشعر دائماً بالرضا والسعادة لأنه الحاج بكري... اسمه يكفيه حتى لو لم يستطع أن يفهم جملة واحدة من محفوظاته... لهذه الأسباب أراها الآن أكثر قبحاً من أن أحتمل رؤيتها. كأنها الآن ليست زوجة! وزوجها كأنه لم يوجد في حياتها البتة؟! كم أرى التفكير في هذا الأمر منفّراً وقبيحاً؟.

- طوّل بالك.

- كم أتمنى أن أعرف ماذا تقول لأولادها عن والدهم؟ أخشى أنها مسحته من أذهانهم مسحاً كاملاً. يا لها من مربية فاضلة!

- لماذا تفعل ذلك؟ ألم ترثه؟.

- ورثته وورثت والده أيضاً.

- إذن لماذا؟.

- ألم أقل لك إنها تحمل طبعاً لئيماً. اللئام هكذا يتصرفون.

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

- دعنا نغادر هذا المكان. ما عدت أطيق البقاء هنا.

- إلى أين سنذهب؟.

- إلى المكتب. سيأتي الأصدقاء ونتسلى معهم.

فأخذ السيّد (ص) ينشد وهو يطوي صنارته.

- أتينا لأجل سمكة كبيرة.

فوجدنا بغلة صغيرة.

تأنقت وارتدت فستاناً أحمر.

شعر صديقي بالنفور،

وصار خجلاً من منظرها.

فحملنا أشياءنا وعدنا.

* * *

الهيئة العامة السورية للكتاب

وردة

أراد السيّد (د) أن يختم أمسيته بمشاهدة أخبار العالم، وجرياً وراء عادته عندما يشاهد شريط الأخبار. تمدّد على الأريكة ليستقبل ما يراه براحة أكبر، ولأجل ذلك أيضاً وضع يديه على بطنه استعداداً لحك خصيتيه. إذ كان معتاداً على الاهتمام بهما خاصة في مثل هذا الوقت.

غير أنه بدا مستاء في تلك الأمسية، وما أثار استياءه تحديداً هو شعوره بالتفاهة أمام تلك الوجوه التي طغت وتحكمت بالشاشة التي ينظر إليها.

هنا يمكن القول أنّ شعوره هذا لم يكن مخادعاً. لأنّ القدر كان قاطعاً حين ألقى به في مزبلة التفاهة، وقد شاء القدر أن يركله بهذه الطريقة بعد أن أمهله ثلاثين عاماً... اختلس خلالها مبالغ لا بأس بها، وكم كان سعيداً بمهارته في تلك الاختلاسات الدسمة. لكن المرة الأخيرة كانت كبيرة على ما يبدو. فعلقت في حلقه، وهي التي تسببت في فضحه، ولاحقاً تسببت في طرده من وظيفته.

لقد أحسّ بألم في حلقه عندما تذكر تلك اللقمة اللعينة. علماً أنّ كل ما نتج عنها تحول خلال أشهر فقط إلى بقعة تافهة يراها أحياناً بشيء من الألم، وإذا كانت هذه البقعة التافهة قد لطخت ذاكرته بلون العار. إلا أنّ المال الذي اختلسه بقي في جيبه.

لكن يبقى هناك ما يؤرقه، وهو أنّ أحداً لم يشأ أن يفاجئه بزيارة أو باتصال عبر الهاتف، ولو أنّ أحداً فعل ذلك لتغيّر مزاجه قليلاً، ويوماً بعد يوم ربما تعوّد حياته الجديدة. لكن حتى هذا الأمر لم يحدث، وهذا ما جعله يعتقد أنّ تجربته في حكّ خصيتيه ستظل هي الأوضح. لأنها الأكثر التصاقاً بروحه ووجدانه.

ومما قاله لنفسه وهو يفكر في وضعه الجديد «إنّ أصعب ما يواجه المرء هو أن يعيش هذه الحياة دون أن يفهم شيئاً» قال ذلك وهو يفكر بأعداد الفاسدين الذين لا يمكن إحصاءهم... بل إنّ فسادهم معلن وشرعي، ثم تساءل بمرارة «لماذا أنا؟».

قال ذلك ونهض إلى الهاتف ليتصل بأبي محمد خليفته ومعاونه السابق. فقد كان هذا الرجل طيباً، ولكن هل ما زال على حاله؟.

هذا السؤال جعله يتذكر فجأة كيف أنّ معاونه هذا كان على رأس الشامتين به. فعاد إلى مقعده ليفكّر هذه المرة في هذا العالم المسطح والحار والمزدحم، ثم قال محدثاً نفسه:

«الأوضاع تسير من سيئ إلى أسوأ، وهذا العالم المتخم بألوان الكراهية والعار لا يهدأ، ولكنْ ماذا عن الله الذي خلق هذا العالم؟ وهل هو سعيد بهذا الخلق؟».

لم يجب على سؤاله، ولم يكن مضطراً لذلك. لعله أراد فقط أن يخفّف عن نفسه، وحيث كانت الساعة قد تجاوزت الثانية عشرة. أراد الاطمئنان على

أمه العجوز. فاتجه إلى غرفتها وفتح الباب بحذر كي لا يوقظها. إلا أنها فاجأته بسؤال لطالما سمعه منها:

- من؟ أنت ! تفضل.

فدخل وجلس إلى جوارها، ثم قال بعد أن صمت قليلاً.

- دخلت لأطفئ النور. لماذا لم تنامي بعد؟.

- نمت قليلاً ورأيت صديقتي وردة!.

- ومن تكون وردة هذه؟.

- قلت لك إنها صديقتي، وقد رأيتها تبكي. فبكيت معها.

قالت ذلك بصوت حزين، وبعد أن صمتت لحظات. أكملت بصوت يشوبه الانفعال:

- تصوّر أنّ هذه الصبية أحبت شاباً وأحبها. إذ كانت تعيش في كنف عائلته، وكان من الطبيعي أن تتزوج به لأنّ الشاب ابن عائلة محترمة، ولا يوجد من يمنع هذا الزواج. فأمها ميتة، ووالدها في أميركا، ولو تزوجا من دون أذن والدها لقضي الأمر، وربما عاشت مع أولادها كما أعيش أنا الآن.

لكنّ والدها رفض إعطاءها الأذن بالزواج إلى حين حضوره، وقد عاد من أميركا بعد فترة وجيزة. فهيأت له منزله بعد أن كان مهجوراً. كما زوجته من صديقة لها.

ثم مرّت الأيام وهي تعتقد أنّ أمورها تسير على خير ما يرام، وسعادتها تملأ دنياها الصغيرة. لقد جاء والدها في الربيع، وكم كان الربيع جميلاً في تلك الأيام! كان جميلاً جداً، ثم جاء الصيف وانشغل الناس بموسم الحصاد، وانتشرت أكداس القمح والشعير على البيادر.

كلّ تلك الأشغال لم تمنعنا من رؤية وردة والاهتمام بحالها. خاصة وأنّ والدها رفض تزويجها من الشاب الذي تحبه. لأنه خطبها لابن عمه الموجود في أميركا، وابن عمّه يُعدّ نفسه للسفر وقد يصل في أي وقت، ثم علمنا أنّ حبيبها مريض، وأنّ التيفوئيد تمكّن منه رغم المشافي والأطباء.

في تلك الأيام كان أقرب مشفى إلينا موجوداً في مدينة تبعد عنا مسافة سفر يوم كامل، وكانت قوافل الجمال تذهب إلى تلك المدينة لشراء المؤن وغيرها.

آه لو تعلم كيف كانت تلك الأيام؟ إنني أتذكّرها بأسى شديد، وأتذكّر الوجوم الذي حطّ على وجوه الرجال الذين اجتمعوا في بيتنا ليتحدثوا عن موت ذلك الشاب! لقد مات في الخريف، وكم حزنت يوم رأيت جنازته. النساء تزغرد، وصوت الرصاص يصمّ الآذان، والعويل والنحيب... مهيب... مهيب!!.

إنني أرتعش كلما تذكرت تلك الجنازة. كم مضى على تلك الأيام؟ ستون عاماً!؟ ربما أكثر من ذلك! ستون عاماً لم أرَ خلالها وردة. لأنها مرضت بعد عامين من وفاة حبيبها. أصيبت بمرض اليرقان، وابن عم والدها الزوج المنتظر لم يأت.

قبل أن يقتلها المرض قالت لي:

- أريد أن أعيش، والحياة تعاكسني كما ترين.

يومها كنت قد أصبحت زوجة والدك. عشت معه ثماني سنوات ثم مات هو أيضاً.

- وماذا عن وردة؟.

- كان هناك شيخ يفهم في معالجة اليرقان. لكنه لم يستطع مساعدتها. فماتت في أقل من عام!.

اذهب يا بني. اذهب. يكفيك اليوم. لقد جلست بقربي قليلاً، وهذا يكفيني. أطفئ النور.

- نعم سأذهب. تصبحين على خير.

قال ذلك وغادر غرفتها من دون أن يأبه لحكاية وردة. ربما تأثر بعض الشيء. لكنه سرعان ما تجاهلها كما يتجاهل الشيء شيئاً آخر، ودون أن يغيب عن باله هذا العالم المسطح والحار والمزدحم. قال لنفسه «لم يبق هناك أي فسحة لقصة وردة وعذابات البسطاء من أمثالها، وإذا وُجدت. فمن يهتم الآن بقصص هؤلاء. من؟».

قال ذلك بطريقة مشبعة بالاستياء، ثم أخذ يحكّ خصيتيه وهو في طريقه إلى فراشه ليكمل هناك وتحت الغطاء الحكّ إلى أن يخدّره النعاس وينام.

* * *

الخروج من المحطة

عندما رأيته... تساءلت «ما هذا الذي أراه؟».

ولأني لم أعرف ماذا يكون، ولم أجد في ملامحه الجمال الذي يستحق التأمل... افترضت أنه طوطماً. علماً أنه كان يقف بين الفرح والحزن، وبيديه يمسك بتلابيب كل منهما... فتساءلت ثانية «هل هو ابنهما؟ وهل يتزوج الفرح والحزن، وينجبان أيضاً؟».

لم أستطع الجواب على هذا السؤال لأنّ الأفكار التي رأيتها في ذهني بدت لي منهكة من الجري المتواصل فترة طويلة من الزمن. فلما أيقنت أني غير قادر على استثارة ذهني... تجاهلت الجواب وأنا أقول لنفسي «إن أراد أن يكون طوطماً فليكن، وإن أراد أن يكون شيئاً آخر فهذا شأنه».

غير أني بقيت أتساءل عن طبيعة هذا الكائن الغريب، وماذا يمكن يكون طالما أنه ليس فرحاً وليس حزناً؟.

في تلك الأثناء كنت أنتظر انطلاق الحافلة التي ستقلني إلى مدينتي بعد أن امتلأت بالركاب، وإذ خيّل لي في لحظة ما أنّ تلك المحطة التي تغصّ بالحافلات لا يمكن أن تحمل غير الأسى. تجهمت قليلاً.

غير أني سرعان ما أدركت أنّ الحافلة أخذت تتحرك، وأنّ خطوة أولى بدأت حقّاً في طريق العودة إلى مدينتي... فقلت لنفسي «لو كنت أكثر

إدراكاً لما يعتمل في ذهني لعرفت كيف أفرح، وكيف أستمتع بهذه الرحلة التي انتظرتها طويلاً».

مع حركة الحافلة إلى الأمام... تغير مزاجي قليلاً نحو الأفضل، ثم ما هي إلا دقائق أخرى حتى رأيت الحافلة تتوقف عند باب المحطّة للتفتيش... فضغطت ظهري على المقعد، ثم رحت أتذكر كيف أنّ التفتيش كان موجوداً قبل الحرب، ولهذا ربما فكرت بأنّ الكلمات التي يجب أن تقال حيال كل ما حدث ما تزال بعيدة هي الأخرى.

ثم عاد معاون السائق بسجل الركاب، وتحركت الحافلة مجدداً وسط الازدحام الشديد، وما كادت تتقدّم أمتاراً فقط حتى شاهدت صاروخاً يقف بين الفرح والحزن، وهذا الصاروخ المجنح بدا لي كأنه يمسك بتلابيب كل منهما.

آنذاك شعرت بشيء من الخوف، ثم ما هي إلا لحظات حتى غاب المشهد عن ناظريّ لتبقى المساحة التي رأيته فيها خالية تماماً... فتساءلت عن الاحتمالات التي سأصادفها في هذه الرحلة العجيبة... ليس لأنها رحلة في المجهول... بل لأني كنت على ما يبدو مجبراً على الانتقال من مجهول إلى مجهول، وتساءلت إذا ما كانت حياتي هكذا منذ البداية...

ما كنت أراه بوضوح هو المساحة بين الفرح والحزن... ففي المرة الأولى رأيت فيها طوطما، وفي المرة الثانية رأيت صاروخاً... أما الفرح والحزن فكانا ثابتين... جامدين مثل تمثالين عملاقين...

لكنّ الحافلة كانت تسير، وسرعتها تزداد باضطراد. فاسترحت في مقعدي وأنا أشعر بشيء من الاطمئنان إلى أنّ الحافلة ستكمل سيرها دون توقف... كما سأكون مطمئناً في مدينتي التي أصبحت الآن آمنة خالية من المسلحين وأسلحتهم... إذ لا صواريخ، ولا قذائف، ولا رصاص، ولا موت.

«يا الله منذ متى كنت أرى الموت نقيضاً للحياة، أو خارجاً عن سياقها».

هذا ما قلته لنفسي وأنا أفكر بكلمة الموت هذه، واستغربت كيف أني أردّد أحياناً ما هو مألوف دون تمحيص... ذلك لأنّ الموت بالنسبة لي جزء من الحياة، وليس نقيضاً لها. لكن بالتأكيد ليس هذا الموت المصحوب بالخراب، والخوف، والهروب، والظلام...

آنذاك كانت الحافلة تشق لنفسها مكاناً متجاوزة السيارات الأقلّ سرعة، ولأنها لم تتقدم سوى بضعة كيلو مترات. حاولت أن أهدئ نفسي انطلاقاً من معرفتي بأنّ الطريق أمامي ستكون طويلة جداً. لأنّ الحافلة ستدور وتدور كأنها تدور حول العالم... فثمّة طرق ما تزال مقطوعة في غير مدينة، وإذا كنا ننتظر أن يصبح الوضع أفضل في المستقبل. لا يجب أن نتجاهل أنّ أمطار الخريف تبدأ متقطعة محدودة... كما لا يجب أن نتجاهل دور القدر الذي أودى بنا إلى هذه المهزلة...

وللحقيقة لطالما حاولت فهم هذا القدر الذي أوصلنا إلى هذه المهزلة، وكم تمنيت أن أحاوره لأفهم كيف تجمعت كل الاحتمالات التي من شأنها إنتاج هذه المهزلة...

التفكير في المهزلة أعادني إلى رؤية الفرح والحزن مرة جديدة، وفي هذه المرة رأيت بينهما جسماً يشبه المركبة الفضائية. فضحكت ساخراً من ذهني الذي يحلو له في بعض الأحيان أن يتخيل ما لا يستطيع رؤيته في الواقع.

ولأني لا أحبّ الصواريخ ولا المراكب الفضائية... تجاهلت المشهد، وبقيت في تلك الحالة المترجرجة إلى أن خرجت الحافلة من الازدحام.

بعد ذلك رأيتها تستوي على الطريق السريع بسرعة مرضية ومريحة... فكأنني أصبحت في مدينتي أركض في شوارعها وأصرخ...

أيها السياسيون... يا قرود العالم... يا غزاة قلب العالم... مدينتي ليست غابة تدخلونها للصيد متى شئتم...

أيها السياسيون... يا قرود العالم... يا غزاة قلب العالم... مدينتي ليست مقبرة ترفعون فيها شواهد قبوركم...

أيها السياسيون... يا قرود العالم... يا غزاة قلب العالم... مدينتي لأهلها... يريدون العيش فيها بسلام... أما فهمتم بعد؟ ألا يمكنكم أن تفهموا؟ اللعنة عليكم إن فهمتم أو لم تفهموا...

* * *

الهيئة العامة السورية للكتاب

القاتل

إلى خيمة العزاء، ومنذ الصباح الباكر. تقاطر المعزون من الأقارب، والمعارف، والأصدقاء للتعزية بأول شهيد في قرية (م - ك) علماً أنّ الشهيد لم يحمله رفاقه، ولم يدفن في مقبرة العائلة...

فقط جاء خبر استشهاده. لأنّ المسلحين اجتاحوا المدرسة العسكرية التي يتدرب فيها، وبعد أن قتلوا كل من لم يسعفه الحظ في الهرب... أقاموا فيها... فأعلن والده وأخوته النبأ، ثم نصبوا خيمة العزاء جرياً وراء عادة الواجب الذي لا بدَّ من القيام به في مثل هذه الحالة.

الصدمة والذهول كانا كبيرين في وجوه أهله. ليس لأنهم فقراء، ولا حول لهم ولا قوة باسترداد فقيدهم. بل لأنّ الشهيد قضى نحبه مظلوماً. لأنه ما يزال تلميذاً يتدرب على القتال، وخدمته في الجندية لم يمض عليها سوى أشهر فقط.

عمّه الموظف الأمني بدا حزيناً أيضاً، ولأنه ثري وله شخصيته الاعتبارية تصدّر مجلس العزاء، وأفرغ جعبته في وصف القتلة ومشغليهم.

هذا العمّ كان بسيطاً أيضاً، ومثله مثل كل البسطاء لم يفكر يوماً إلا بحماية نفسه من أخطار الحياة، ولا بدَّ أنه في مرحلة من عمره. استكان كغيره إلى الوضع الذي وجد نفسه فيه، وكانت غريزته كافية لجعله يتلمس معالم

الطريق الذي أصبح طريقه الوحيد. كابحاً رغبته الأكيدة في الجري إلى النجاح كيفما كان.

ومثل الكثيرين استخير الواقعية والعقل لبلوغ مراميه. إذ كان همّه أن يتعلم كيف يزيد من سرعته أو يبطئها بحسب الممكن.

بطلنا هذا كان قد حصل على الثانوية العامة بشقّ النفس، وكم كانت فرحته كبيرة عندما حصل على هذه الشهادة، ولكي لا يدخّر جهداً في بلوغ الكفاية المادية. انتسب إلى سلك الشرطة برتبة صف ضابط، ثم وافاه الحظّ مرة أخرى وتم فرزه إلى قسم الأمن. فعمل بجد وإخلاص، ومشى متلمساً خبرة الأقدمين في جمع المال. فحصّل بعد عقدين من الزمن بيوتاً، وعقارات تفيض عن حاجته وعن حاجة أبنائه.

وبطبيعة الحال ابتعد عن أهله ومعارفه القدامى. ابتعد عنهم بسبب الكثير من الضرورات. أهمها الحسد الذي رآه في عيونهم، ولأنه بسيط وطيب كما كان يتصور... استغرب بشدة كيف يمكن لشخص في هذا العالم أن يحسده أو يكرهه. لأنه رجل أمن يقوم بواجبه خير قيام...

حتى عندما يصادر بعض علب البسكويت أو الحلاوة المهرّبة من شخص بسيط. فهو يقوم بواجبه في منع التهريب، وحتى عندما يبيع هذه الأشياء المهرّبة إلى تاجر ما. فهو يفعل ذلك إكراماً للسوق الذي يحتاج مثل هذه الأشياء بدلاً من تلفها، أو رميها في الزبالة.

وبما أنّ هذه الأشياء البسيطة لا قيمة لها مقارنة بالأشياء الكبيرة والخطيرة فقد كان يقوم بها جرياً وراء الضرورة... كالنمر عندما يفشل في الحصول

على غزال لا بدَّ له أن يرضى بغراب كسيح... لأنّ الرزق من الله، ولا حول ولا قوة إلا به.

أمّا الأمور الكبيرة والخطيرة مع المهربين الكبار... كتأجير الطريق لعدّة ساعات، أو ليوم كامل. فلم يكن نصيبه من أمر كهذا إلا بمقدار حجمه... خاصة وأنّ الأحجام الكبيرة تحرس كل الوطن بطرقه ومعابره كلها...

ورغم أنّ هذه الأمور معروفة من قبل عامة الناس. إلا أنّ بطلنا هذا ما كان يظنّ أنّ أحداً يعرفها. لأنّ أحداً لم يقل له شيئاً من ذلك طوال خدمته، وحتى الأقدم منه لم يسمعوها من أحد أيضاً.

هذا الشعور بالاطمئنان إلى صمت الصغار والكبار كان كافياً على الدوام لجعل سلوكه في غاية البساطة حين يتطلب الأمر ذلك، ويكفيه أن يجعله في غاية القسوة حين يتطلب الأمر القسوة.

في خيمة التعزية كان العمّ يجمع بين الحالتين. إذ كان متواضعاً وبسيطاً في حضوره... لكنّ نبرة صوته كانت جادّة وقاسية. خاصة عندما كان يتحدث عن القتلة ومشغليهم...

الحديث نفسه والإيقاع نفسه تكرر في أكثر من وقت، وفي اليوم الثاني حين بدأ يشرح للحاضرين أنّ القتلة المأجورين لا شيء مقارنة بقوة الدولة التي عندما تقرر أن تضرب الأرض برجلها. سيفرّ هؤلاء كالذباب أمام أي حركة من جيشنا الباسل.

في تلك الأثناء. كان أخ الشهيد علي، وهو الأكبر سنّاً بين أخوته يصغي بألم شديد، وقد رأى أنه ما عاد يستطيع أن يتحمل الكثير من هذا التضليل. فوقف وقال مخاطباً عمّه.

- أتظن يا عمّ أني لا أعرف القاتل؟.

أجابه عمّه بابتسامة محتارة:

- أنت تعرف القاتل؟.

- أجل أعرفه.

- من يكون؟ ما أسمه؟ وما اسم عائلته؟.

عندئذ صرخ الشاب بصوت كأنه السهم المنطلق:

- أنت... أنت القاتل.

- ماذا تقول؟ هل فقدت عقلك؟!.

فأجابه الشاب بصوت جارح كحد السيف.

- سأقولها للمرة الألف. أنت قاتل أخي... أنت الذي قتلته...

آنذاك وقف العمّ فاغرا فمه وسط ذهول الحاضرين، وفي حين أخذت عيناه ترسلان بريقاً رهيباً... ربما توقف تنفسه بعض الوقت، أو لعلّه شعر بذلك، والدم كأنه توقف في شرايينه...

لم يعرف ماذا يقول لصدّ هذا الاتهام الرهيب، ولم يسعفه لسانه في قول كلمة واحدة. فقط أستطاع أن يخرج من الخيمة متلمساً الفراغ دون أن ينظر إلى أي شيء آخر. إذ كان الفراغ أمامه أسهل وأكثر أماناً من كل ما رآه في حياته...

* * *

الهيئة العامة السورية للكتاب

العجوز الغريب

خيّم ظلّ الجبل الغربي على مساحة واسعة من البحيرة، وما عاد بالإمكان رؤية أشعة الشمس الغاربة إلا في بعض الأماكن البعيدة. إذ كانت أشعتها تختفي تباعاً أمام الظلّ الذي يتمدد ويتسع لحظة بعد أخرى.

أما الصيّاد (ج) والصيّاد (م) فكانا يقفان على ضفة البحيرة وتحت الحافة العالية التي يقع الطريق بمحاذاتها. الصيّاد (ج) في عقده الخامس، والصيّاد (م) أصغر سناً بقليل. لكنّ هذا الأخير يبدو أكثر أناقة واهتماماً بنفسه. لأنّ الصيّاد الكبير كان أشعث الشعر وبلا أسنان تقريباً. حتى ملابسه كانت بالية ومتسخة أيضاً.

في تلك الأثناء حضر ذلك العجوز الغريب بسيارته. فركنها بجانب الحافة، ثم أخرج منها كرسياً. حمله ومضى ليجلس في مكان ملائم بين شجيرات السنديان الصغيرة. فما كاد يجلس حتى رمقه الصيّاد الأكبر سناً وكأنه كان يتوقع حضوره في تلك اللحظة ذاتها. إذ قال لرفيقه:

- انظر إليه... لقد جاء... إنه يأتي منذ أسبوع إلى نفس المكان. يأتي في السادسة... أي عند الغروب تقريباً، ثم يذهب عندما يبدّد نور القمر ظلمة المساء. أي يجلس أقل من ساعتين تقريباً... سيارته فاخرة كما ترى، وملابسه فاخرة أيضاً.

البارحة، وقبله، وقبله، وفي الأمس أيضاً وهو يعكّر مزاجي. أراه فلا أستسيغ وجوده قريباً مني... بالأمس انتابني شعور بالغيظ. فغادرت المكان وأنا ألعن حظي.

عندما مررت بجانبه. ألقيت حجراً نحوه. فانزلق الحجر بجواره دون أن يصيبه. لكنه لم يلتفت إليّ. لقد أغاظني تجاهله لي كثيراً. فعدت وركلت سيارته بقدمي. لكنه لم يلتفت إليّ أيضاً. فلعنته ومضيت.

فقال رفيقه بشيء من اللامبالاة:

- ما شأنك به؟! إنه عجوز يأتي ليتسلى برؤية البحيرة، ونحن نتسلى برؤية البحيرة وصيد السمك أيضاً. فلماذا كلّ هذه الضغينة نحوه... الأمر في غاية الغرابة؟!.

- لا أعرف... ربما لأنه ميسور الحال، وربما لأنه عجوز غريب لا معنى لوجوده في هذا المكان، والأسوأ أنه يشرب شيئاً لا أعرف ما هو؟ انظر إليه. إنه جامد على كرسيه، والزجاجة في فمه الآن.

- يستطيع أن يشرب ما يشاء... ما شأننا نحن؟.

- كيف تقول ذلك؟ وهل هذه البحيرة إلا للفقراء أمثالنا... أقسم أني لا أذكر منذ متى لم أرتدي بذلة جديدة، وثيابي دائماً متسخة. أما هو. انظر إليه... إنه يبدو في أحسن حال... فلماذا لا يذهب إلى مكان يليق به؟

- ما تقوله لا يعجبني.

- لماذا؟.

- لأنه ينم عن أفق ضيّق. والأسوأ أنك بعد كل هذا العمر لا تعرف شيئاً عن الناس.

- ماذا تعرف أكثر مني؟.

- الملابس الجيدة لا تشير دائماً إلى أنّ صاحبها في أفضل حال.

وهذا الشخص تحديداً ألا تراه جامداً مثل تمثال. إني أكاد أشفق عليه، وعموماً حال الناس في هذا الزمن الذي نعيش فيه الآن يصحّ فيهم القول (جميعهم يتحركون وكأنهم مصابون بحصر البول).

- حصر بول؟! أبعده الله عنا وعنكم.

- حصر بول ذهني يا فهيم. كحالك أنت الآن.

- أنا لا أعاني من حصر بول.

- بل تعاني منه، ورأسك يكاد ينفجر من هذا الحصر.

- لعنك الله، وهل البول في رأسي؟.

- لا فائدة من الحديث معك. بديعة الفقيعة هالكة سماءك.

- قال بديعة قال؟! ما شأنها بنا الآن؟! هي تهتم بالبقرات وتطعمني أيضاً. أما أنا فلا أفعل شيئاً سوى انتظار أسماك هذه البحيرة اللعينة، والأسماك غالباً لا تأتي. فأعود خالي الوفاض لأسمع منها كلاماً يسدّ النفس.

فيقول زميله ضاحكاً:

- لكنها تطعمك في النهاية، وتنام شبعان... ماذا تريد أكثر من ذلك؟

- أريد أن أكون شيئاً له قيمة...

- شيئاً له قيمة مع بديعة الفقيعة! لماذا؟ ما حاجتك إلى هذه القيمة التي تبتغيها؟ أظنّ أنها لن تنفعك بشيء.

- والله كأنك تأخذ الكلام من قلبي. لكن هل تعرف باقي الكلام؟.

- لعلك تقصد العجوز الذي يشغل ذهنك دون هوادة؟.

- أجل. إنه يشغل ذهني، وصورته تلاحقني دائماً... حتى عندما أضع رأسي على المخدة أراه.

- لا يجب أن أشرح لك السبب، والأفضل أن نذهب الآن...

- الآن؟.

لم يجب الصيّاد (م) بشيء. بل شرع يطوي قصبة الصيد خاصته، ويلملم بقية حاجاته، وهذا ما فعله الصيّاد (ج) دون إبطاء. فلما أصبح كل شيء في أيديهما... صعدا الحافة إلى الطريق تاركين القمر خلفهما تماماً.

أثناء مرورهما بجانب العجوز. شاهداه وهو يتأمل القمر. فناداه الصيّاد (ج) بصوته القوي:

- نحن ذاهبان... تفضّل معنا.

لكنّ العجوز لم يلتفت، ولم يكترث. فقال الصيّاد (م):

- أظنّ أنه أطرش.

- أطرش؟!.

أجابه الصيّاد (ج):

- قلت: أظن، وبعض الظن إثم.

- تظنّ؟! ومرتبك من هذا الظنّ؟!.

- لست مرتبكاً، ولا أجد مبرّراً لغضبك!.

قال الصيّاد (م):

- أنا غاضب. لأني أراه أطرشاً وخرفاناً أيضاً... هل تراهن على ذلك؟.

- لا... لا أراهن.

- إذن دعني أجرّب هذه الحصاة.

قال ذلك وقذف برجله حصاة صغيرة نحو العجوز. فأصابته في ظهره.

آنذاك التفت العجوز نحو الرجلين... التفت نحوهما بكل تهذيب. إلا أنّ نظرته كانت قاسيةً جداً، ومن المرجح أنّ أحداً منهما لم يحتمل تلك النظرة. فتابعا سيرهما دون أن يلتفتا إلى الخجل الذي لحق بهما خطوة بعد خطوة إلى أن غابا واختفيا خلف منعطف بعيد.

* * *

عيناه

منذ أن دخلت إلى تلك الصالة. راودني شعور بالخوف من الفشل في تقبّل القبح الذي يمكن أن أراه. خاصة وأني لم أكن أعرف أحداً من الحاضرين سوى صاحب البيت الذي دعاني... أما خوفي فكان يتركّز أساساً على الخبث الذي لا بدَّ أن يرافق الناس حين يجتمعون.

وحيث أنّ المناسبة التي دعيت إليها لها طابع مقدّس، والمدعوون جاؤوا للاحتفال بها. فقد كان عليّ أن أكون حذراً. لكن هذا الحذر لم يمنعني من التركيز في عيني ذلك الجالس قبالتي. إذ كانت عيناه تدوران في محجريهما مثل عينيّ شيطان، أو لعلّ شيطانين كانا يتلصّصان في تلك العينين... يريدان الخروج ولا يستطيعان، وما كانت حركة بؤبؤي عينيه إلا تعبيراً واضحاً عن قلق الشيطانين وتمرّدهما على الاستكانة والخنوع.

لاحظ الرجل تركيز نظراتي في عينيه. فحاول تجاهلي بإشغال نفسه بالحديث مع شخص آخر، ومع تكرّر محاولاته للهرب من نظراتي فإنّ محاولاته بدت عابرة... مؤقتة... عديمة الجدوى.

حتى خلال انشغال الحاضرين بأداء آداب الطقس الديني الذي دعيت إليه كضيف من خارج الجماعة الدينية. إذ كانوا معتادين في مثل هذه المناسبة

على قراءة الأشعار، وترتيل الأناشيد الدينية... أقول حتى خلال هذا الوقت لم ينجح في الهرب من نظراتي، وبقي يراقبني خلال مشاركته في أداء الأناشيد.

لم يكن صوته سيئاً... لكنه كان وقحاً... متكلّفاً، وشيطانياً، وأظنّ أنّ بعض الحاضرين لم يستسيغوا وقاحته... أما أنا فرأيت أنه لا يبغي من حضوره الوصول إلى الله. بل الهرب من الشيطان الذي يقبع خلف عينيه.

عندما انتهت وصلة الأناشيد، وما عاد بإمكانه أن يتلهى بأمر آخر. بدا مثل قرد نزل عن أعلى شجرة الموز بقفزة واحدة. فبقي الأمر بيننا لغزاً... لا أنا استطعت التخلي عن رؤية الشيطانين الممسكين ببؤبؤي عينيه، ولا هو استطاع الإفلات مني...

ثم جاء دور الطعام الخاص بهذه المناسبة، وهو عبارة عن صحن لكل شخص من الحبوب المطبوخة مع اللحم المفروم. فلما تناول الجميع محتويات أطباقهم... أخذوا يغادرون الصالة واحداً بعد الآخر.

وإذ بقيت في مكاني. رأيته يكلّم صاحب الدار بصوت خفيض... بعد ذلك انتقل وجلس إلى جانبي، ثم ما هي إلا لحظات وكنّا قد أصبحنا وحدنا في تلك الغرفة الواسعة.

آنذاك رأيته يحافظ على اتساع عينيه على أمل أن يتوقف بؤبؤا عينيه عن الحركة... فانتظرته ليقول شيئاً، وفعلاً سرعان ما سمعته يقول:

- مولانا الإمام يطلب منا الخشوع والرحمة فيما بيننا في مثل هذه المناسبة، وفي كل المناسبات أيضاً، وأنت بقيت تنظر إليّ طوال الوقت. لم تنشد، ولم تشارك. ما جعلني أعتقد أنك لست واحداً منا. بالله عليك لماذا حضرت؟.

فأجبته دون تردد:

- حضرت لأراك.

فوجئ بجوابي. فقال مستغرباً:

- حضرت لتراني؟ إذن أنت تعرفني، وتعرف أني سأحضر؟.

- لا أعرفك، ولا أعرف إن كنت ستحضر. لكن أظنّ أني حضرت لأراك... إنها لعبة القدر.

فسألني وهو يضع رأسه أمام صدري تقريباً:

- وكيف رأيتني؟.

قلت:

- رأيت شيطانين في عينيك، أو شيطاناً واحداً يحرك كلتي عينيك بيديه.

- الشيطان يحرك عيني؟! كيف يحدث ذلك ونحن نحتفل بمناسبة دينية مقدّسة؟! المكان ليس مكانه، والمناسبة لا تسمح له بالاقتراب.

- قد يكون رفيقك في كل الأمكنة، وهنا ربما عجزت عن طرده بسبب ضعفك. فبقي معك...

- أستطيع القول أنّ الشيطان موجود في كل الأمكنة، وربما أكون ضعيفاً أمامه كما قلت. لكنّ هذه العباءة تحميني من شروره، والمناسبة أيضاً لا يحقّ لنا أن ننسى دورها!.

- ولماذا لا نفترض أنّ المناسبة لا تعني لك شيئاً. في الجوهر قد تكون عبداً للشيطان، وفي الظاهر تزعم أنك عبد لله.

- لماذا أفعل ذلك؟ ولماذا تأخذك ظنونك إلى هذا الحد من الشكّ بي؟! عيب عليك.

- أنا مهتم بحركة عينيك التي يقبض عليها الشيطان... أما شتائمك فيمكنك أن تؤجلها إلى أن ينتهي نقاشنا.

- إذن ماذا تريد أن تقول؟.

- عليك أنت أن تفسّر لي علاقتك بالشيطان.

- أستطيع أن أؤكد لك أن لا علاقة لي به، وإذا كان موجوداً في عيني كما تدعي. فأنا لا أعلم بذلك أبداً.

- أنت تكذب، وأراهن أنك شخص فاسق.

- إذا قبلت المراهنة ستخسر الرهان... لأني أقوى منك. هؤلاء الذين رأيتهم في هذا الحفل لن يتخلوا عني لأجل الهراء الذي تتفوه به، ولا داعي لأن أذكّرك بأنّ الشيطان يحرّك شهوات كلّ الناس... في الماضي البعيد لم يكن هناك فصل بين الله والشيطان. إذ كانت الرزيلة والفضيلة

من صنع الله الذي يعبده أناس تلك الأيام. الآن يوجد فصل بين الله والشيطان، ويوجد فصل بين أفعال كل منهما. أنا أرتدي هذا الثوب لأحتمي به من الشيطان الذي يطاردني، وهذا هو حال كل من يرتديه.

- لكنه لم يبتعد عنك. بل كان ممسكاً بعينيك، وهذا الحال لا ينطبق على الجميع.

- وماذا تظنّ أنني أستطيع أن أفعل؟.

- لا تكن مزيّفاً... فقط لا تكن مزيّفاً... ابتعد عن الزيف يا رجل... ابتعد عن النفاق، وستجد أنّ الشيطان عاجز عن الاقتراب منك.

آنذاك دخل صاحب البيت مبتسماً، وبعد أن رمقنا بنظرة سريعة. اتجه ليجلس بجانبي. فلما جلس أخذ يربت على ساقي بحنو، ثم إذا به يقول:

- أنتما لا تعرفان بعضكما، وواجبي أن أوضح بعض الأمور لكما معاً... نحن يا أخوتي بين يديّ الله، ولا قدرة لنا على الطيران بعيداً عن يديه... حتى الطائر الذي يكسر البيضة ليطير... هو يفعل ذلك ليكون بين يديه، والله نستدلّ عليه من خلقه... أما الشيطان فنستدلّ عليه من أفعالنا. حركة عيني هذا الرجل قد لا تكون مستحبّة. لكن ليس مؤكّداً أنّ الشيطان يحركّها، وحتى لو كان الشيطان هو من يحركّها. فالرجل يكافح ليبتعد عن هذا القبح، وهذا أمر جيد. إذن يجب أن نشجعه، ونؤازره في مسعاه.

قال ذلك، ثم أخذ يربّت على ساقي براحة يده وكأنه يحثني لأن أقول شيئاً. فقلت:

- أعرف أنّ عباءة الدين تتسع للجميع. حتى الفاسقين والمنافقين يحتمون بهذه العباءة. لكن ليس هذا ما يشغلني...

فقال صاحب البيت:

- إذن ما الذي يشغلك؟.

- عيناه!! ولا أفهم لماذا تأخّر إلى هذا الحدّ في علاج نفسه. علماً أنّ الأمر يحتاج إلى قرار فقط.

قلت ذلك ونهضت لأغادر، ثم خرجت متجاهلاً نظراتهما التي لحقت بي.

* * *

الهيئة العامة السورية للكتاب

الصراخ

كان قد صعد إلى شجرة الزيتون ليقلّمها، فإذا بالريح التي لم تكن ظاهرة كما ينبغي تشتدّ فجأة... ما جعل أغصان الشجرة تتمايل وتتأرجح دون توقف... فتخلى مؤقتاً عن التقليم ليراقب حركة الغيوم المسرعة في رحيلها نحو الشرق...

جلس على أحد الجذوع، واتكأ على جذع خلف ظهره، ثم راح يتأمل الغيوم وهي تجري كأنّ عصاً غليظة تسوقها بعنف، ولأنه كان في أعلى الجبل... بدت الغيوم قريبة منه... بل إنها بدت مستاءة من الريح التي تسوقها وكأنها تريد أن تقول له «هنيئاً لك استراحتك التي حرمتنا الريح منها كما ترى...».

ابتسم بلطف للغيوم الجميلة التي كانت تعبر الفضاء فوق رأسه. بل وفي كل الفضاء الذي يراه. لأنّ الفضاء كان واسعاً وجميلاً بحيويتها التي تشبه قطعانا تجري... هذا غير أشعة الشمس التي تظهر بين الحين والآخر.

في تلك الأثناء تذكّر بعض الأعزاء الذين رحلوا بذات السرعة... تذكّر شاباً وصبيّة. فتقلصت عضلات وجهه استجابة لحزن الخريف الذي كان فيه، أو لعل تلك التقلصات كانت لمقاومته. لأنه لم يبك، ولم يعرف كيف حدث ذلك... ربما لأنّ ذهنه أوجد تسوية ما... إذ كانت الدروب تتعرج

أمام ناظريه كأنها مرسومة على أرض مكسوة باخضرار أشجار الزيتون على امتداد النظر.

المنظر كان بديعاً، وقد بدا له أنّ من حقّه الحصول على هذه الفرصة ليتأمل ويعرف ما يراه في كل يوم... فقد كان كل شيء رائعاً وجميلاً في تلك اللحظات، وكم تمنى ألا تنتهي تلك اللحظات... لأنّ نظره كان رائعاً أيضاً...

أغصان الأشجار في الجبل المقابل... رآها وهي تتمايل وتتأرجح دون أن يكون لها خيار آخر... لم يشغله الأمر كثيراً وكأنه في دنيا جديدة ليس إلا عابراً فيها دون أن يعرف متى ينتهي عبوره، ولا كيف سينتهي... حتى الشجرة التي اختبأ في عبّها كان سينزل عنها لاعتقاده أنها ليست له... لكن رغم هذا الاعتقاد بقي مستريحاً عليها لأنه كان سينزل في نهاية المطاف قبل أن يعود إلى منزله...

مضى بعض الوقت وهو هادئ في عبّ الشجرة... ينظر تارة إلى قمم الجبال المحيطة به، وينظر تارة أخرى إلى الوادي المتعرّج الممتد من الشرق إلى الغرب، وكان يتذكّر بعض الأشياء كأنه طفل ينعم بدفء الرحم الذي لم يغادره بعد، وكاد أن يصرخ. أنا بخير... أنا بخير...

لكنه لم يفعل. فقط نزل عن الشجرة لاعتقاده بأنّ الريح لن تهدأ، وربما قد تزداد سرعتها أكثر. لكن بما أنّ الوقت كان ما يزال باكراً. راح يبحث

عن بعض الأعشاب التي تصلح لإعداد وجبة من الطعام كي يحملها معه عندما يعود...

وفعلاً اقتلع بعض الأعشاب وهو ينتقل من مكان لآخر، ثم سمع صراخاً عند سفح الجبل. اجتذبه الصراخ رغم الإرهاق الذي حمله إليه. فهبط عدّة أمتار ليرى ذلك الشخص الذي يصرخ، وإذ به يشاهد شخصين متقابلين في شجار قوي وعنيف... كان أحدهما يعلو ويهبط مثل مكبس داخل أسطوانة محرك انفجار داخلي... أما الآخر فكان أكثر انضباطاً وتماسكاً.

صراخ الشخص الذي كان يعلو ويهبط في حركة ترددية مذهلة... نقل تفكيره إلى ضجيج المكبس الذي يتلقى قوة الانفجار في غرفة الاحتراق التي لا مثيل لها في رأس الرجل. في حين كان مفصلا ركبتيه يعادلان مفاصل عمود المرفق...

فأخذ يتأمل المشهد دون أن يفهم شيئاً من الصراخ الدائر بينهما، ولأنّ الشجار كان مقتصراً على التلاسن والحركات التي لا تؤذي. لم يجازف بالنزول لفضّ الاشتباك. علما أنّ انتظاره لم يستغرق وقتاً طويلاً. لأنّ شخصاً آخر حضر بصوت أشدّ قوة وشراسة من صوتي المشتبكين، واستمر هذا الأخير في صراخه إلى أن انتهى الاشتباك وتفرق الثلاثة كل إلى عمله...

بعد انصراف الرجال الثلاثة. انصرف هو أيضاً ليكمل بحثه عن الأعشاب التي يريدها... إلا أنّ حركة الرجل المكبس بقيت ماثلة أمام ناظريه، وصراخه الذي توقف منذ بعض الوقت لم يغادر سمعه... كأنّ ذلك الصراخ العام والأزلي والمخادع أشدّ عناداً من أن يتركه ويرحل.

فكّر في رجل الدين الذي يصرخ، وفكّر في رجل السياسة الذي يصرخ، وفكر في المريض الذي يصرخ، والطفل الذي يصرخ، والمغني الذي يصرخ، وفكر في الجماهير التي تطلب قائداً يجيد الصراخ أمامها لتصرخ خلفه... وكأنّ المهم هو الصراخ... صراخ... صراخ يرافق الحياة دائماً... لا يتوقف أبداً، ولا يجوز أن يتوقف... لا يهدأ أبداً، ولا يجوز أن يهدأ... حتى أثناء الموت الذي يكافئ الحياة ويعادلها يبقى الموت والميت صامتان. أما صراخ الحياة والأحياء فيبقى طاغياً... طاغياً...

* * *

الهيئة العامة السورية للكتاب

بحيرة الوهم

خرج من منزله دون وجود سبب واضح يدفعه للخروج... فقط كان يعرف أنه متضايق ومضطرب، وأنه يحتاج إلى المشي ليخفّف من الضيق الذي عرف كيف يضغط على صدره بقوة مستهترة لا عقل فيها ولا قلب.

فمشى على الطريق التي تبعده عن الناس والمساكن باتجاه الغابة البعيدة، ويا له من اضطراب ذاك الذي جعل خطواته خرقاء كأنه لا يعرف كيف يمشي... لكن فيما بعد رأى خطواته وقد أصبحت أكثر انضباطاً واتساقاً، وشيئاً فشيئاً تحول غضبه إلى حزن كبير.

أكثر ما لفت انتباهه خلال تلك المسافة التي قطعها خلال نصف ساعة من الزمن هو انتقال ذهنه من الانشغال بقبح الدهشة التي كانت تعتريه إلى جمال الدهشة التي غزت نفسه رويداً... رويداً... إذ كانت الغيوم الرطبة التي بلّلت الأرض والسماء ما تزال تتوالد عند خط الأفق قبل أن تنتشر مبتعدة. حتى الأشجار التي غسلتها مياه الأمطار كانت رائعة هي الأخرى... أما أزهار الخريف فكانت بمثابة أبجديته التي تولد معه وتموت معه منذ الأزل.

في لحظة ما... قال لنفسه وهو يتابع سيره:

«بما أنني مندهش طوال الوقت... مرّة من هذه الدنيا التي لا تعطي أسرارها لأحد، ومرّات من عموم الناس الذين يلهثون خلف التفاهة دون أن يكلفوا أنفسهم عناء التوقف لحظة واحدة لتأمل جمال القمم التي وصل إليها البعض دون أن يقولوا تعبنا... أيكون السبب هو سقوط وحدة الكلمة العظيمة، ومن ثم انتشار الجمال المزيّف واغتصابه السيادة؟».

ثم تابع حديثه مع نفسه بعد أن فكر قليلاً «الجمال الحقيقي يفرض الصمت... لأنّ الجمال والصمت وجهان لعملة واحدة... أما الجمال المزيّف فيفرض الانتقاد، ولأنّ الجمال المزيّف استطاع اغتصاب السيادة. حلّ الانتقاد محلّ الصمت، وأصبح التافهون مشغولين بالجمال المزيّف والانتقاد معاً... بل إنّ كل واحد منهم بات يبحث لنفسه عن هالة مزيّفة تجمع ما بين الأمرين معاً...».

هزّ رأسه وكأنه يطرد أفكاراً لا جدوى منها... لأنّ الجمال الحقيقي كان موجوداً أمام ناظريه... بل كان وجوده أقرب إلى وجود الأفكار العظيمة التائهة في ضجيج التفاهة والسخف المهين.

هذا ما انتبه إليه أخيراً وهو يغذّ السير قدماً دون هدف محدّد... فقط كان يريد أن يمشي، وبعد مسافة لا بأس بها من السير المتواصل. دخل غابة تتزاحم فيها أنواع كثيرة من الأشجار... دخلها وتابع سيره دون وجود درب يرشده إلى أية جهة آمنة. فقط كان هناك الارتباك الذي أحاط به من كل الجهات، ثم أدرك لاحقاً أنّ المساء يسبق خطواته في جعل الغابة أكثر متاهة.

كان غبش المساء مع ظلّ الأشجار منهكاً... مثيراً، ومحفّزاً لكل موجبات اليقظة العالية... حتى خطواته بدت رشيقة خفيفة كأنه بات يلامس الأرض بقدمي فراشة، ولهذا ربما لم تصادفه أية مفاجأة إلى أن وجد بحيرة محاطة بنوع من الأشجار الباسقة.

لم يعرف من أيّ نوع هي رغم أنها كانت تتهامس فيما بينها تحت ضوء القمر الذي ظهر ساطعاً بلونه الفضي في ذلك المساء الخريفي النظيف.

عندما وقف متأملاً جمال المكان. أحسّ بدهشة غاية في الروعة.

حتى أنه نسي الكلمات التي حملته، وتلك التي حملها في رحلته هذه... إذ كانت صفحة المياه الساكنة تحت ضوء القمر أشبه بمرآة سائلة لا تمنع ضوءاً من اختراقها، ولا تكشف سرّاً من أسرارها...

وبقي جامداً في مكانه لا يتحرك... لحظات كثيرة مرّت وهو يتأمل ويصغي إلى أي صوت يسمعه... كان نقيق الضفادع واضحاً، وهسيس الأشجار أقلّ وضوحاً... إلا أنّ صوتاً آخر كان يصل إلى سمعه دون أن يتبين ماذا يمكن أن يكون إلى أن شاهد صبيّة تخرج من الماء وتتجه نحوه.

لم يربكه حضور الصبيّة بقدر ما أربكه لباسها الملتصق بجسدها تماماً... فخمّن بداية أنها قد تكون اختارت هذا اللباس ليحميها من برودة المياه الأكيدة في مثل هذه الأيام، ولهذا ربما تنفس الصعداء وهو يراها تقترب منه... بعد ذلك رآها تقف أمامه ثم تلقي عليه تحية المساء. فردّ على تحيتها بمثلها، وإذ ذاك قالت له:

- توهمت وجودك هنا. فجئت لأراك.

فسألها:

- إذن من أنت، وماذا تفعلين هنا؟.

- أنا روح هذه البحيرة، ومن الطبيعي أن تكون إقامتي فيها.

- لم أكن أعلم بوجود هذه البحيرة، ولا أعرف ما اسمها؟.

- اسمها بحيرة الوهم.

- والوهم ما يقع في الذهن من ظنون وخواطر!! ألهذا السبب بقيت سليمة من أيادي العابثين والمخربين والساخطين من ظلم البلاد والعباد.

- بل إنّ موقعها في الذهن يماثل كلماتك التي سطرتها كلمة بعد كلمة إلى أن وصلت إلى هنا.

- كلماتي؟!.

- أجل كلماتك، ولولاها لما كنت هنا، ولما التقينا.

- لا أعرف ماذا يجب أن أقول الآن.

- يمكنك أن تقول: بما أنّ الحبّ هو الوهم الأشدّ وميضاً في هذا الوجود. تعالي نستضيء به. عسى أن يحملنا يقينه بعيداً عن براثن الشك العظيم.

- الحبّ الحقيقي أم الحبّ الوهم؟!.

- الحبّ الوهم...

- كأنّ الأوهام وجدت لنعيشها نحن الذين ساعدنا الطامعين بنا ليضعونا في المصائد كالفئران. لكن هل النوم ممكن في منطقة الوهم هذه؟ أنا معتاد على النوم باكراً، وأشعر الآن بإرهاق كبير.

- أجل تستطيع النوم، والفراش موجود... إنه مصنوع من جذوع الأشجار وأوراقها، وأؤكد لك أنك ستنام نوماً هانئاً.

قالت ذلك ومشت أمامه ليتبعها. فإذا به يشاهد خيمة جميلة. دخلها واستلقى على الفراش الممدّد فيها، ثم غطى جسده بالغطاء الموجود ونام. أما هي فعادت إلى مياه البحيرة لتكمل ليلتها وفي ظنها أنها لن تراه ثانية لأنه أكمل كلامه ونام.

* * *

الهيئة العامة السورية للكتاب

اقتفاء الأثر

تحرّكنا الحياة لاقتفاء أثر الموت في كثير من الأمكنة التي نعرفها، وقليل من الأمكنة التي لا نعرفها، ونمضي غير مبالين. لأنّ الموت أينما كان هو موتنا نحن. هذا ما يقوله فرويد... أما السيارة فكانت تسير بنا دون أيّ اضطراب. لأنني أنا من يقودها، وهي لي، والطريق أمامي واضحة تحت ضوء شمس كانون المشرقة...

أرى دراجة نارية تسابق الريح نحوي. فأخفّف سرعة السيّارة وأذهب إلى أقصى اليمين تفادياً لأي احتمال غير وديّ. لكن سائق الدراجة الذي ينظر في وجهي بدا وكأنه يريد أن يسقط في حضني. فأصرخ عندما لم يبق بيني وبينه مسافة تكفي لعبور ذبابة.

- يا الله. ما هذا الهبل؟ رحمتك يا رب!!.

فإذا بالخطر يبتعد خلال ثانية، ثم نمضي سالمين على الطريق الذي أخذ يتجه صعوداً. صعوداً... إلى أن أصبحنا بمحاذاة جبل يقوم مالكه الجديد بإعادة هيكلته وفق رؤيا جديدة تتناسب مع حجم الأموال المذهلة التي ينفقها لأجله.

قلت لمن كان معي:

- أظنّ أنّ هذا الجبل ليس لهذا المالك، والنقود التي يصرفها ليست من جيبه.

فأجابني الرجل:

- أوافقك. لأنّ هذا المالك وإن كان قويّاً ومقتدراً. يبقى عاجزاً عن إنجاز كل هذه الأعمال. المعدات والآليات والعمال سيجعلون من هذا الجبل شجرة ميلاد لا مثيل لها، وسيكون من حقنا أن نستمتع برؤيته مثل مالكه الحقيقي.

- مثل هذا المالك الذي لا نعرفه بعد لا يفكّر في إنشاء معمل، أو أيّ منشأة تستحق الاحترام... ذهنه يميل إلى امتلاك الجبال... يا له من رجل؟! هل يعقل أن ترى هذا الإنفاق في زمن أشرس حرب وقعت على كاهل السوريين؟!.

قال الرجل محركاً يديه بعصبية تدل على نفاذ صبره:

- انظر ليلاً إلى الشرق قليلاً، وسترى جبلاً مضاء كله وسط العتمة التي تحيط بنا من كل الجهات. إذ هناك في أعلى الجبل قصر مضاء هو الآخر. ألم تره؟ ألم تسمع به؟.

- سمعت به، والأفضل أن نغلق أفواهنا ونمضي.

فسكت الرجل لتكون رحلتنا أكثر يسراً في اقتفاء الأثر الذي أتينا لأجله... إنه أثر الموت الذي أخذ قريبنا، وربما نكون عما قريب بين يديه. لكن بما

أنّ الطريق هو الذي يقودنا. كان لا بدَّ لنا أن نسلك طريقاً آخر يتفرع عن الطريق الرئيس. مع أنّ هذا الطريق الفرعي بدا أكثر اتساعاً، وأفضل تزفيتاً. فقلت متعجباً.

- هذا الطريق غاية في الروعة.

قال الرجل:

- تم تجهيزه منذ فترة قصيرة لأجل ساكن جديد في القصر الذي حدثتك عنه منذ قليل.

لم أعقب بأي كلمة. لأنّ الطريق أخذ انتباهي واهتمامي. حتى السيّارة بدت وكأنها تسير دون أن تكون بحاجة لساعديّ، ولم أستيقظ من ذهولي إلا عندما انتهى هذا الطريق، وصار لزاماً عليّ التخفيف من سرعة السيّارة بغية الانعطاف يساراً، ومن ثم الاتجاه جنوباً بمحاذاة شاطئ البحر.

آنذاك قال الرجل الذي يجلس بجانبي:

- لو كان الهواء غربياً لوصل ضجيج البحر إلى آذاننا. لكنه يبقى هادئاً عندما تكون الريح شرقية.

لم أعلق بشيء لأنّ كلامه كان صحيحاً، ولأنّ انتباهي كان يتركّز أساساً على المطبّات، والحواجز، ومحلات البيع المتناثرة على جانبي الطريق. فلما اجتزنا هذه الأماكن. أخذت أتذكّر الماضي. إذ كنت أعرف الطريق، وأعرف زياراتي المتكررة إلى البيت الذي نقصده.

ومع الذكريات تعززت ثقتي بألفة الأمكنة. إذ كانت أيكات القصب على جانبي الطريق كما عهدتها دائماً، وبيوت الغجر المصنوعة من الخيش والتنك في مكانها تماماً، وهنا وهناك يمكن رؤية فيلا محترمة. أما البيوت البلاستيكية فهي كثيرة جداً، والخضرة في داخلها عارمة سامقة، وأبوابها مفتوحة للريح وضوء الشمس.

ثم ظهرت البلدة التي نقصدها دون أية مفاجأة. إذ لم أر جديداً في ذلك السوق رغم مرور ما يقارب الخمسين عاماً، ولست أدري إذا ما كان ذلك المحني الظهر مثل الرقم ٦ مع عكازه كان يصرخ في تلك الأيام كما يصرخ الآن (لله يا محسنين).

ثم وصلنا إلى البيت الذي نقصده، وهناك تشتّت انتباهنا... لقد حدث أن تحدثنا بعض الوقت مع قريبتنا التي بقيت وحدها في البيت... ذلك لأنّ أخوتها بقوا كل في بيته، وقد قرروا كما أعلمتنا قريبتنا ألا يجتمعوا حرصاً منهم على عدم الاختلاط، وعدم انتشار الوباء في حال كان أحدهم مصاباً به.

العتمة التي وجدتها داخل المنزل كانت كافية لجعلي أفكّر بعبث هذه الرحلة واقتفاء الأثر... أيّ أثر كان. إذ بدا لي كل شيء في غير مكانه الصحيح، والخبر الصاعق الذي وقع في قلبي عندما سمعت بموت قريبي. بدا لي الآن أشبه بزوبعة صغيرة تحمل القليل من الغبار.

وتفاديا لحركة الزوبعة والغبار الذي تحمله. رأينا ألا نتصافح، وألا نكون معاً... بل كيف نكون معاً وأخوته وأخواته قرروا ألا يجتمعوا

تفاديا للإصابة بفيروس الوباء. إذن فلنمكث قليلاً ثم نغادر، وعلى هذا الأساس مكثنا قليلاً، ثم غادرنا البيت دون أن ندرك أثراً للأثر الذي سعينا لأجله.

عندما عدنا. كان الصمت عتادنا الوحيد، ولم أنتبه لسرعة السيّارة إلا عندما نبهني الرجل الذي يجلس بجانبي حين قال:

- سرعة السيّارة بطيئة جداً. لماذا؟.

أجبته:

- كل ما أعرفه أني غير قادر على الضغط على دواسة البنزين بقوة أكبر... كأني لا أحبّ أن أصل... يبدو أني تعبت من مواجهة احتمالات الخيبة... حياتنا كانت مليئة بها، وموتنا سيكون خيبة أخيرة...

عندما جئنا كان الحال مختلفاً. كنت مفعماً بمشاعر الحزن والحنين... الآن أشعر أنّ الماضي أصبح بعيداً جداً، وأنا أصبحت قديماً جداً، وما كنت أريد أن يحدث هذا.

* * *

الهيئة العامة السورية للكتاب

فأل سيئ

عندما استيقظ الشحاذ... هكذا أصبح يسمي نفسه. كانت زوجته قد خرجت إلى العمل. فتمطّى لينشّط مفاصله التي جمّدها البرد رغم اللحاف السخيف الذي يتغطّى به. بعد ذلك غسل وجهه، ثم أعدّ الشاي وجلس ليشرب فنجاناً ساخناً. لكنّ البرد منع عنه الإحساس بسخونة الشراب. إذ أنّ برد عيد الميلاد الجاف كان شديداً، والبيت محروم من أيّ نوع من التدفئة، وهو بلا حول ولا قوة...

كان يعرف أنه أصبح عاجزاً، ويعرف أن العلل التي استوطنت جسده لا شفاء منها رغم الأدوية وتكاليفها، وها هو الآن لا يعرف ماذا يستطيع أن يفعل. مع أنه يريد أن يفعل شيئاً... أيّ شيء يجعله أقوى من هذا الضعف الذي ينخر عظامه.

نظر حوله كالمعتوه، ثم قام وأحضر المخطوطين اللذين كتبهما مؤخراً... قلّب صفحات المخطوط الأول، وقرأ بعض القصائد، ثم قلّب صفحات المخطوط الثاني وقرأ بعض القصائد أيضاً، وبعد أن نظر إلى الباب المغلق أولاً... قال بصوت مسموع (لا جدوى يا يسوع... لا جدوى).

قال ذلك، ثم نهض وخرج ليحضر الصفيحة التي توقد فيها زوجته الحطب الذي تحضره معها بعد انتهاء عملها في أراضي الفلاحين. فلما أحضرها

ووضعها أمامه... أمسك أول ورقة ليحرقها... لكنه توقف قليلاً لأنها كانت تحمل عنوان المخطوط (وجهك وبرد هذا الميلاد).

تذكّر أنه كتب هذا العنوان في العام الماضي، وبذلك يكون قد مضى عام كامل دون أن يكتب شيئاً... فقال لنفسه «ثلاثة كتب مطبوعة، واثنان قيد الطباعة... هذا يكفي... لكن كيف يكون المرء شحاذاً وشاعراً؟ إنه أمر في غاية الغرابة» قال ذلك وأشعل الورقة، ثم أخذ يلقي بالأوراق تباعاً ويتدفأ...

لو رأى وجهه في تلك اللحظات لأدرك أنّ ملامحه جامدة مثل وجه تمثال من البازلت... لكنه كان يفكّر في أمر آخر... إنه الشعر والناس وهو... الناس لا شأن لهم بالشعر أو الفكر، والشعراء يمدحونه ويقولون له إنه شاعر حقيقي. أحد الكتاب المحترمين قال له: أنت مثل الخط المستقيم. تطلق فكرتك مثل السهم... فتصيب هدفك بإتقان شديد. لأنّ الخط المستقيم هو أقصر مسافة بين نقطتين.

وقال له شاعر محترم أيضاً: أقسم أنك شاعر حقيقي، وقال آخرون كلاماً مشابهاً. لكنهم رغم علمهم جميعاً بحاله وأحواله... لم ينسوا في لحظة ما أن يتأوهوا على أحوالهم وكأنهم هم الشحاذون وليس هو... هذا الأمر أيضاً في غاية الغرابة...

هذا ما فكّر به وهو جامد النظرات. مع أنّ المسألة الأكثر غرابة كانت في مكان آخر... لأنه لم يكن يائساً، ولم يكن ضعيف العقل ليشعر باليأس.

بل على العكس من ذلك كان طبيعياً وصلباً كما هو حاله دائماً... إذ لطالما كان قادراً أن يقول كلمته دون مواربة، ودون حساب للنتائج. همّه الدائم أن يربح نفسه، وأن يربح فكره وصدقه مع هذا الفكر.

عندما انتهى من حرق أوراق المخطوط الأول. كانت يديه أكثر دفئاً مما توقع... فصبّ لنفسه كأساً آخر، ثم أخذ يفكر دون أن يلمس المخطوط الثاني...

فكر في التسوّل لأنه لم يجد أمامه حلاً آخر... لكن هل يستطيع أن يصبح متسوّلاً؟ هذا ما تساءل عنه وهو يستعرض ملامح أحد المتسوّلين الذين يعرفهم. لقد عرفه منذ أن قدم إلى هذه البلدة التي هجر إليها، وهذا المتسوّل الذي يراه بين الفينة والأخرى لا يخجل من كونه متسوّلاً.

توقّف عند هذه النقطة تحديداً، وفكّر عميقاً بها... ما أذهله أنّ هذا المتسوّل يمشي على الطريق مثل أيّ رجل، ويحدّث الناس بصورة طبيعية تماماً، ثم يركب السيارة مثل أيّ مسافر، وفي المدينة يبحث عن رزقه من جيوب المحسنين، وإذا لم يوفق كما يجب. يعود كأنّ شيئاً لم يكن.

الأمر بالنسبة لهذا المتسوّل بسيط إلى هذه الدرجة... لكن هل يمكن أن يكون بسيطاً معه هو أيضاً؟ هذا ما تساءل عنه وهو يعتقد أنّ الأمر قد يكون معه قاسياً ومستحيلاً، وما يفترض حدوثه... قد لا يحدث أبداً. «لا... لا يمكن أن يحدث... لأنّ هناك حلّ آخر، وهذا الحلّ أبسط وأنظف بكثير».

قال ذلك وأمسك المخطوط الثاني، ثم نظر في أوراقه وتنحنح بصوت قويّ... كأنه أراد بذلك أن يجمع شتات أفكاره. مع أنّ أفكاره كانت تدور حول الأمر الذي عقد العزم عليه. فقط قال وهو ينهض «لطالما حملتني قصائد هذا المخطوط إلى عوالم أحببت سحرها، وأظنّ أنها ستفعل الشيء نفسه اليوم» قال ذلك ثم غادر البيت برفقة المخطوط.

كان البيت الذي يستأجره في الطرف الغربي للبلدة القائمة على جبل يبعد عن البحر نحو خمسة عشر كيلومتراً. وكان من عادة هذا الشاعر أن يمشي عندما يكون الطقس جيداً إلى السفح الغربي للجبل حيث يوجد سور صخري هائل. يرتفع عمودياً نحو عشرة أمتار... إذ كان يستريح هناك خلال فترة غروب الشمس... يستمتع برؤيتها وهي تختفي خلف البحر قبل أن يعود إلى مسكنه.

قصد ذلك المكان بخطوات ثابتة رزينة... لا التفاتة إلى اليمين، ولا نظرة إلى اليسار، ومن المرجّح أنّ يكون لقامته المنتصبة، وبطنه الذي يوحي بأنه شبعان دائماً أكبر الأثر في هذه المشية تحديداً، والأهم أنه لم يصادف أحداً ليلتفت نحوه.

عندما وصل إلى السّور الصخري. بدت له الشمس المشرقة عاجزة عن إذابة الصقيع الذي خلفه الليل البارد... أما النسيم فكان شرقياً خفيف السرعة لا يمكن ملاحظة وجوده. مع ذلك وقف بثبات في ذلك المكان الذي أختاره ليرى كيف ستحمله أشعاره إلى مكان آخر أكثر عدلاً وحبّاً وجمالاً، وما كان يريد الكثير... فقط أن يحصل على الكرامة التي تستره.

من ذلك المكان أخذ يلقي بأشعاره في الهواء. فكانت الأوراق تسقط إما عند قدميه، أو تبتعد قليلاً لتقع عند أسفل السور. لم يعجبه هذا الطيران رغم أنه كان قد ألقى نصف أوراق المخطوط. فتوقف قليلاً لينظر في الأمر، وماذا يستطيع أن يفعل؟.

تمنى لو أنّ هناك ريحاً عاصفة، ولو كانت الريح أقوى مما هي الآن لرحلت أوراقه إلى أماكن قصيّة. لكنّ الريح كانت جامدة، وأي توقّع آخر لا معنى له. قد يكون الفأل سيئاً، وهو سيئ كما يظهر للعيان، وحتى لا يحتاج إلى إثبات.

ما من أحد يعرف كيف اتجهت أفكاره في تلك اللحظات... هل تخيّل ريحاً قويّةً تحمله؟ أو هل أراد أن يقارع جمود الريح التي خذلته؟ أو هل فقد رشده من شدة الغضب. لا شيء يمكن معرفته ليتم البناء عليه. لأنه وفي لحظة ما قفز عالياً ليلقى بالأوراق التي بقيت في يده دفعة واحدة. فألقى بها. لكنه كان أسرع منها في السقوط والتكور عند قاعدة السور.

* * *

الهيئة العامة السورية للكتاب

فهرس

الصفحة

الإهداء ٥

الدعاء ٧

تحت السنديانة ١١

الخن فن ١٦

نهر الآلام ٢٢

الخضّاضة ٢٧

اليوم الأول ٣٢

تحت المطر ٣٧

القبح والجمال ٤٣

وردة ٤٩

الخروج من المحطة ٥٤

الصفحة

القاتل ٥٨

العجوز الغريب ٦٣

عيناه ٦٨

الصراخ ٧٤

بحيرة الوهم ٧٨

اقتفاء الأثر ٨٣

فأل سيئ ٨٨

فهرس ٩٣

الهيئة العامة السورية للكتاب

يونس محمود يونس

صدر للمؤلف:

١ - الموت الفاسد – مجموعة قصصية – وزارة الثقافة، ١٩٩٦م.

٢ - المهرج – رواية – وزارة الثقافة، ١٩٩٧م.

٣ - الراوي – مجموعة قصصية – وزارة الثقافة، ٢٠٠١م.

٤ - مأوى اليوم – مجموعة قصصية – وزارة الثقافة، ٢٠٠٤م.

٥ - الأسطورة – مجموعة قصصية – وزارة الثقافة، ٢٠٠٧م.

٦ - مهنة آدم – مجموعة قصصية – اتحاد الكتاب العرب، ٢٠٢٠م.

٧ - المعبد – مجموعة قصصية – وزارة الثقافة، ٢٠٢١م.

٨ - نصف رأس – رواية – وزارة الثقافة، ٢٠٢١م.

٩ - محنة التمثال – مجموعة قصصية – وزارة الثقافة، ٢٠٢٣م.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الهيئة العامة السورية للكتاب